رواية

المزامير

فتحي سلامه



المـزاميـــر

تأليف: فتحي سلامة

-١-

صاح سلمان متألما، تركنا حبات البرتقال تسقط مـن بين أيدينا، اندفعنا نحوه لنري سبب صراخه، رأينا نقط الـدم تتساقط من يده، والدمع ينساب على خديه.

اقتربت منه وسألته:

- ما بك يا سلمان؟

لم يرد، ظل فمه مشغولاً بالبكاء – ولكن بعد برهـة قصيرة أشار ناحية البيارة لمحنا (يوسف) يتلفت في ذعر.

تركنا سلمان في بكائه وأسـرعنا لنلحـق بيوسـف، ولكنه ما إن شعر بنا حتى أطلق ساقيه للريح وجري ناحيـة القرية، قفزنا عبر جدول صغير لنسد عليه الطريق، ورغـم أنه كان يجري بسرعة الأرنب المذعور، لحقنا به وأصـبحنا على وشك الفتك به، ولكن (الشيخ جابر) اعتـرض طريقنـا بقوة وهو يقول:

- هذا ولد صغير، وأنتم أربعة!

وتصايحنا في غضب محاولين الإفلات منه، وقـال (صادق) في ضيق:

- ولكنه آذي زميلنا سلمان.

وابتسم الشيخ جابر وهو يمسك بنا تماما بينما نحـن نتململ في عصبية وقال:

- المسامح كريم يا ولدي.

فصحت في وجهه:

- ولكن..

فقاطعني الرجل بسرعة وعيناه تبرقان:

- قلت دعوه..

شعرت بالحنق تجاه الرجل ووددت لو أنني ضـربته على رأسه، ولكنه كان ضخم الجثة ذا وجه مخيف ونظرات حادة، تراجعنا جميعا وكان قد تركنا نتماص من يديه، وعاد يقول:

- سوف أبلغ والديه بالأمر حتى يؤدباه، وفي الغـد يأتي ليعتذر إلى سلمان.

لم يعجبنا كلام الشيخ جابر، ولكـن لا فائـدة مـن الاحتجاج. لقد هرب يوسف، وأصبح في أمان مـن أيـدينا داخل منزلهم وبجوار أخته (راشيل)، ولن نسـتطيع اقتحـام الدار، فآثرنا العودة إلى حيث تركنا سلمان.

كنا أربعة، صادق، وسلمان، وعبد الله، وأنا، لا يزيد عمر أكبرنا في الثانية عشرة من العمر، نذهب إلى المدرسة في يافا في الصباح ونعود فـي الظهيـرة إلـى قريتنـا (أم السلول) لنظل نعمل في جمع البرتقال حتى المساء.

وأحيانًا، كان ينضم إلينا يوسف زميلنا في المدرسة، ولكنه رغم تظاهره بالهدوء والطيبة وميله للبكاء، فإنه يتحين الفرص لينالنا بالأذي، يغرز في ذراع أحدنا سلة من أشواك أفرع الشجر منتهزاً فرصة انشغالنا بجمع حبـات البرتقـال، وفي كل مرة نضربه أو نطرده من صحبتنا وسـرعان مـا يتدخل أحدهم ويتوسط بيننا لنتركه.

ولكن هذه المرة لن نقبل وساطة أحد، ولن نسمح لـه مهما تباكي أو توسل للانضمام إلينا، فقد رأينا وخزة الدبوس في ذراع سلمان مزقت الجلد وحفرت أخدودا عميقًا ظل الدم يسيل منه مدة طويلة.

عدنا إلى الدور، وكان المساء قد حل، والقمر ظهـر خلف الأشجار يعكس ظلالها على طول الطريـق، وغبـار أرجل الماعز والخراف تطرز الطريق في أشـكال متباينـة، وترسل رائحة التراب إلى الأنوف، وريـاح البحـر تـأتي

بنسمات رطبة تجعل البرودة تسري في أجسادنا، وكان الصمت يلفنا ونحن نواصل المسير حتى بلغنا الجسر الخشبي الذي يفصل البيارة عن الدور، ولكن ما إن اجتزنا الجسر حتى انهمر علينا سيل من الحجارة فجأة، أسرعنا نجري لنحتمي بأسفل الجسر، وفي أثناء ذلك أصابني حجر في مؤخرة رأسي، صرخت من الألم ورفعت يدي إلى موضعه فشعرت بلزوجة الدم بين أصابعي.. ولم يكن أمامنا إلا أن نتراجع حتى نتبين مصدر هذا الهجوم، ولمحت، وأنا أستدير يوسف يشير على مجموعة من الصبية كانوا معه بالهرب، صرخت بحقد:

- يوسف، يووو....

وكان الاسم كافيا لأن يجعل بقية رفاقي يستديرون بسرعة نحو إشارة يدي، واندفعنا نحوهم، ولم يكن في أيدينا سوى بعض العصي من أفرع الليمون، وانهلنا عليهم ضرباً وهم يصرخون في فزع، وفجأة ظهر جندي إنجليزي من بعيد، وكان مشهوراً بشراسته فولينا الأدبار عائدين إلى ديارنا، قاذفين بأفرع الليمون المحطمة جانبا وبعد لحظات كنا نشعر ببعض الأمان داخل منازلنا.

استقبلتني أمي في لهفة وهي ترى الدماء تنزف من رأسي ودار الكلب حولي يتشممني مصدراً صوتاً مكتوماً كأنه يتوعد، من أصابني، واندفعت أختاي تسألانني عما بي، وانطلق صوت أبي من الداخل آمراً بغلق باب الدار والكف عن الصراخ.

جلست بالقرب من الجدار، راح ابن عمي عبد الله يحكي لهم ما حدث في كثير من المبالغة، وكأنه تصور نفسه في معركة حربية وبكلمات حماسية حفظها عن حكاية (الشاطر حسن) راح يروي الواقعة، رمتني أختي ببعض الكلمات القاسية، قذفتها ببقية ماء كان في الكوب.

بعدها، جلسنا للعشاء في صحن الدار، نأكل ونعقب على ما جرى، صاحت أختي صباح، وقالت:

- أهذا الصبي، ابن بائع الخمور يضربك؟

رميت بما في يدي، وصرخت:

- بخيانة، لم يضربني إلا بخيانة، ومع هذا ضربناهم..

وأكمل عبد الله:

- حتى انبثق الدم من جوانبهم.

ولكنها زمجرت في ضيق وقالت:

- لو أن أخاك هنا!

واهتزت اللقمة في يدي، ونظر أبي إليها في عتاب، واضطربت أمي وهي تترك مكانها علـى العشـاء تغالـب دموعها، ولفنا الصمت فجأة وطيف أحمد أخي يدور حولنا.

حمدان، أو (أحمد)، كان يتعلم في الأزهر، وحينمـا جاء في إجازة مثل كل الأعوام، لم يعد...

ذهب إلى المسجد في يافا، أحاط الناس به يسـألونه ويجيب أخذ يذهب إلى هناك كل يوم، وفي أحد الأيام، ونحن في مثل هذا الوقت، نجلس في حلقة العشاء، إذا بشـلة مـن الجند يقتحمون المنزل ويعيثون فيه فساداً باحثين عن شـيء ما، ثم انصرفوا وأخذوا حمدان معهم..

وحاولنا في الأيام التي تلت ذلك، البحث عنه، ولكننا لم نستطع الاهتداء إلى مكانه، الضابط يقول :

.. لقد رحل إلى قبرص..

والمختار يقول..

.. دخل الجيش، في فرقة الأجانب..

الضابط يقول، والمختار يقول، وصابر وعم خليـل وعكاشة يقولون، ولكن أخي لم يعد، الضابط إنجليزي، يجيب في كبرياء وبرود، سألت أبي:

- أبي، هل كل الضباط إنجليز؟

نظر أبي إلى السماء، وقال:

- نعم.

قفز إلى ذهني شكل الجزر الأحمـر، سـألته مـرة أخرى:

- في كل البلاد؟

قذف أبي بعصا رفيعة أكلها هم القلب، وقال:

- نعم.

اقترب عبد الله، وسأل أبي:

- هل يمكنني أن أكون ضابطًا مثلهم؟

ارتفع جبل (لا) بعد أن قذفه أبي من فمـه صـفيراً حاقداً في غضب، تسلق عبد الله الجبل وقال:

- لِم يا عمي؟

سكت أبي وابتلع الجبل، ثم نظر إلى عبد الله وقال:

- لا أدري يا ولدي.. على كل حال أنـت مازلـت صغيرا بعد.

ثار عبد الله ووقف مشدوداً بعصبية وصاح:

- وكتاب الله، سأصير ضابطاً.

ثم أخذ يسير في مشية عسـكرية ويهتـف بـبعض الكلمات..

صاح أبي، متبرما بحركة عبد الله:

- اهدأ يا ولدي، حينما تكبر، ستعرف: لمـاذا هـم الضباط دائما.

لم يجلس عبد الله، وظل يسير في صحن الدار يحمل عصا على كتفيه ويدور في خطوة عسكرية.

سمعنا طرقا عنيفًا على الباب، وكلمات مهددة بلهجة أجنبية، نظرت إلى أبي في تساؤل، ثم إلى الباب وهو يهتـز في عنف، قفزت متجهاً نحو الباب، ولكن أبي منعني بيـده، وتقدم هو وفتح للطارقين..

اقتحم ضابط وبعض الجنود الدار، ودخل في أثـرهم الشيخ جابر وراشيل أخت يوسف، تحركت بسرعة أبحث عن مكان أختفي فيه، ولمحت عبد الله قد تسلق الحائط، حاولـت

أن أفعل مثله ولكن أمي أمسكت بي، تلفت الضابط حوله في اشمئزاز، وقال بغضب:

- أين هذا الولد الملعون؟

وتقدم أبي في مواجهته، وقال:

- ليس لدينا أولاد ملاعين يا حضرة الضابط.

ولكن راشيل أشارت بيدها ناحية عبد الله:

- إنه هناك، هذا الولد.

ثم نظرت إلي وقالت:

- وذاك أيضا.

وتظاهرت بالبكاء، وتعرت في خيال الضباط، ولعق شفتيه في نشوة، وبكت راشيل، خلعت سـروالاً أحمـر بـه رائحة نتنة. التهب الدم في شرايين الإنجليزي المولـود فـي شارع داي بلندن، داعب شاربه، تأوهت راشيل:

- حرام، حرام ضربوا أخي المسكين.

نزعت عن ذراع يوسف قميصه الحريري، وظهـر اللحم الأبيض الناعم، تلوثه بعض الـدماء، همهـم جـاويش الفرقة وحك في أسفل بطنه، واقتـرب مـن الغـلام وراح يتحسسه في رفق، نظر الجاويش إلى الضابط، بعدها انـدفع

ثلاثة من الجند وسحبوني من خلف أمي وجذبوا عبد الله من عنقه.

نظرت إلى أبي ثم إلى أمي ولكنهمـا لـم يتحركـا، نظرت إلى عبد الله وجدته رابط الجاش..

وخرجنا من الدار في موكب مخبول..

الملابس تمزقت والجند ينهالون علينا ضـربا بـلا رحمة، وعبد الله لا يبكي ينظر إلى ضاربه في غضب، وأنا لا أدري أفكر أحيانًا في القمر، وأحيانًا في أخـي حمـدان، ومرات كثيرة في الجنة، ثم في الجلاد، ولكن الجلاد يتلهـى بالنظر إلى السماء يعد النجوم، ألف ألفان، ثلاثة.. لا شـيء مهم، الألم يصل إلى نقطة وبعدها يصبح نوعا من العادة، أو من اللذة المؤلمة، ولكن هناك ما يجرني إلى أسفل، شيء مثل خيوط الشعر الأسود..

وأخيرا جلست فوق نجمة من نار ظلت تهبط حتـى هوت بي إلى القبر.

***

-٢-

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي، ظللت حـائرا فـي تفسيره، أقلبه وأنظر إليه من جميع الزوايا، ولكني عاجز عن تفسيره ولا أدري ما الذي جعل الضابط يأمر بطـردي مـن المدرسة، وظللت فترة حائراً ثم.. ثم فهمت.

كنت متعلقًا بالدراسـة، شـغوفًا بالمعرفـة، أقلـب صفحات الكتب ملتهما ما فيها بشراهة، وأتعثر في رموزها، تعجزني اللغة أحيانًا، وأحيانًا يعجزني ما أقرؤه من حقـائق أكتشفها لأول مرة، أسأل المدرس، ولكنه ينظر إلـى الأفـق ويصمت، وأحيانًا يقص قصة (الملك ماهوش الأول) المدرس يقول:

النور الأخضر يلد الضوء، والضوء جريمة،

ذلك من أيام الخلق الأول، يأتي الرب من الفلوات،

لا أفهم ما يعنيه، أتظاهر بالذكاء، والمدرس يقول..

.. قذفوا ريشة جناح الديك، وقلعوا أزهار الليمـون،

ورجل مأفون يصرخ في رعب مسرور.. يا قادمون..

قالوا مجنون وعبيط، كنت صغيرا لا أحسـن فهـم الناس قلت كذلك هو مجنون توسلت إليهم وبكيـت دعـوني

أدخل مدرستي، أبدا.. قالوا مطرود محروم، حرمونا نحن الأربعة من دخول المدرسة.

ورأيت عيون يوسف من خلف الزجاج، زجاج الفصل، تبرق من الفرحة، ووددت لو بصقت فيها، ورأيت عيون زملائي تبكي من الحسرة، وعدت حزيناً إلى قريتي.

جلسنا، نحن الأربعة، نفكر في طريقة نتحايل بها ونعود إلى المدرسة، وتشابكت الآراء واختلفت ولكننا وجدنا أن هذا أمر في غاية التعقيد.

تذكرت أخي حمدان، لقد ذهب إلى الأزهر وعاد وهو يقول كلاما له رنة جميلة، فإذا تحدث أنصت الناس، وإذا سئل أجاب، إن الأزهر أكبر مدرسة في العالم..

- ولكن كيف الذهاب إليه.. في مصر؟

بدد السؤال الصمت من حولنا، وبرقت العيون وتطلعنا ناحية الغرب كيف نصل إلى القاهرة؟ وكيف نهرب من عيون الجند وهم يراقبوننا في كل حارات القرية وبياراتها؟

ثرثر عبد الله وقال كلاما ضاع في انفجار الألسنة، وتشابكت الكلمات حاسمة وخطيرة، نصحو في الفجر، ثم

نتسلل خلسة قبل أن يفيق الجند من النوم، ونسير إلـى يافـا ومن هناك نتبع حافة البحر حتى نصل إلى مصر.

ياه.. ما هذا العدد الغفير من الناس؟ خلق كثيـرون يجلسون في صحن الجامع ورجل أسمر له لحية بيضاء يقف على المنبر يخطب في الناس، يصيح، يشير بيـده، ينـتفض بقوة، يبرق العرق على جبينه، فمه واسع مثل بئـر النبـع، أسنانه بيضاء مثل حبات الملح، عيونه سوداء مثـل الليـل، والناس من حوله ينصتون، ولكنهم هاهم أولاء يقفـون، ثـم يندفعون، يخرجون من الجـامع، يسـيرون فـي الـدروب والحواري، يقتلعون الأشواك والأسلاك، ثم يتقـدمون نحـو الجند، وينهالون عليهم ضربا، والدماء تنـزف مـن عـين الضابط ويصرخ من الألم، يسقط ميتًا، اقترب الـذئب مـن الجثة، أكل الذئب الجثة.. ومضى.

ضحكت الأرض، صارت خضراء، تثاقلـت أفـرع الشجر بالثمر الأحمر، صارت الدنيا بيضاء، هزني أحـدهم، صحت فيه:

- دعني أر.

- ولكني لا أوافق.

استدرت بسرعة، وسألت:

- عن ماذا؟

- السفر إلى مصر.

تذكرت، قلت حروفًا ناقصة، ارتفع حوار غاضـب، أحيانًا يأكلنا الحوار ولهذا تموت الكلمـات، وأحيانًـا نأكـل الحوار نمضغه ولهذا تموت الكلمات.

صادق قال:

- هل نترك أهلنا هنا عرضة لمضايقات راشيل؟

وساد الصمت، مرة أخرى، تذكرنا راشيل..

جاءت منذ ثلاثة أعوام مع أسـرتها، وأقـاموا فـي طرف المدينة يصنعون السلال لأصحاب البيارات، ثم مضت الأيام، أقاموا محلاً لبيع الحلوى للأطفال ومشروبات للكبار.

وانضم إليهم آخرون، وتاجروا في أشياء كثيرة منها ما يباع همسا لا نسمعه نحن الصغار، وسرعان ما أصبحوا أغنياء يملكون بيارة وسيارة وخمارة.

وراشيل هذه، تسير في الشـوارع تهتـز، يحيطهـا الشبان بعيونهم ويجري خلفها الأطفال يقـذفونها بـالطوب، ولكن جنود الضابط المولود في شارع داي بلندن يحرسونها.

- لابد من قتلها.
- حتما.
- نقتلها ثم نفر إلى مصر.

وصمم صادق على أن يفعل ذلك بنفسه، يتسلل إلـى دكان الخمور حيث تقف راشيل ويغمد خنجرا فـي قلبهـا، وتموت الأفعى وتستريح القرية من شرورها، وتكف العجائز عن لعنها، وتصبح البيارات أكثر أمنًا.

- ولكن الخنجر، من أين؟
- ليس في أيدينا سوى أفرع شجر جافة.
- نقذفها بحجر في رأسها.
- كيف؟
- نقف على الجدار المواجه للدكان، ونظل نرقبهـا حتى تخرج لبعض أمرها ثم ننهال عليها قذفًا بالحجارة، مرة واحدة معا..
- وتسقط على الأرض..
- وتموت.

وسأل سلمان:

- ولكنهم سيمسكوننا، فما العمل؟

حطم عبد الله عودا من الحطب، وقال:

- المهم أن نقتلها أولاً، لقد ضربونا بسببها كثيرا.

في اليوم التالى، خرجنا في الصباح ندور في القرية نجمع في جيوب سراويلنا كل ما يمكن جمعه من طوب وحجارة، وعدنا إلى الجدار المواجهة لدكان راشيل وجلسنا فوقه في انتظار خروجها.

ومرت ساعة، والهواء بارد، والجو معتم قليلاً، والجوع يتسرب إلى بطوننا ولم تظهر راشيل بعد، وفكرنا في الهبوط والعودة فيما بعد..

ولكن ما إن بدأنا نهبط حتى صاح صادق:

- ها هي ذي.

وبسرعة خاطفة استعدنا أماكننا، وبدأنا نقذفها بالحجارة أصابتها إحداها في أسفل قدمها، ولت هاربة تصرخ في رعب وتولول في خوف، والحجارة تطاردها حتى اختفت.. ولكنها لم تسقط جثة هامدة كما كان ينبغي، شعرنا بالألم يحز في قلوبنا هذه العقرب التي تلدغنا جميعا وتسمم كل آبارنا وتسرق أرضنا، تذهب إلى الجحيم هي وأقاربها.

هبطنا الجدار في بطء، ولكن ما كدنا نضع أقـدامنا على الأرض حتى قابلنا الشيخ جابر يبتسم في بلاهة ويقول:

- ماذا كنتم تفعلون يا خبثاء؟

تلاقت العيون في إشارة سريعة، وامتدت الأيدي إلى ما في جيوبنا من طوب وحجارة، وانهلنا على الشيخ جـابر قذفاً، وكأنه وحده يحمل سر الكراهية والحقد والمرارة التـي في قلوبنا، ويصرخ الرجل في ألم، يسبنا ويتوعدنا في حنق، ولكننا لم نتركه إلا بعد أن فرغت الحجارة من جيوبنا.

جرى الشيخ جابر مذعورا، وبدأنا نحن طريق العودة إلى منازلنا، وكنا في حاجة إلى تناول الطعام، وسرنا عـدة خطوات – ولكن سلمان صاح فجأة:

- ولكن الشيخ جابر..

وتوقفنا، سيحضر هذا الرجل الخبيث الجند الذين لن يتركونا هذه المرة، بل ربما قتلونا رميا بالرصاص كما فعلوا ببرقوق أمس، لم يكن هناك بد من العدول عن الذهاب إلـى الدور، والأفضل الخروج من القرية كلها.

اقترح صادق أن نذهب إلى إحدى البيارات البعيـدة حيث يمكننا الاختفاء، نقتات حبات البرتقال ريثما نعود إلـى ديارنا.

مشينا في وجوم، تهزنا مشاعرنا المظلوم المنبـوذ، والألم الأحمر في النفوس الخضراء يميتها، اقتربنا من مدخل البيارة، سمعنا ضحكات ماجنة، تقدمنا نحو المـدخل رأينـا مجموعة من الشبان في ملابس تشبه ملابس الجند في أيديهم بنادق وأسلحة أخرى ويقفـون فـي أول البيـارة، شـعرنا بالخوف، كنا نسمع عن قطاع الطرق من عصابات اليهـود وما يفعلونه بالدور بالسكان، وليس بمستبعد أنهم جاءوا بنـاء على أمر راشيل، والويل لنا في هذه الحالة.

عدنا نجري في رعب صوب الدور، وما إن وصلنا إلى مشارف القرية حتى وجدنا أهلينا في اضطراب وفوضى وأحدهم يخطب في حماس، ثم تحركوا في انفعال قلق، ومـا لبث أن تفرق الرجال وهرولت أنا خلف أبي حتى وصلنا إلى المنزل حيث أخرج بندقيته العتيقة والتـي اسـتطاع، رغـم حملات التفتيش المتكررة، أن يخفيها حتى الآن.

وتطور الموقف تطورا سريعا، ورغم صغر سني في تلك الفترة، إلا أنني أذكر تفاصـيل الليلـة الملعونـة بكـل وضوح، وما زالت أحداثها عالقة في ذهني، وكل صـورها مازالت مرسومة في مخيلتي، بل إن الكلمـات التـي قيلـت مازالت ترن في أذني، وما زال التجهم علـى وجـه أمـي وإصرار أبي وهو يربض ببندقيته خلف الجدار في تـربص، وكثير من الصور الأخرى ماثلة أمام عيني.

قال شيخ ضرير، في صوت مخنوق :

.. نعاج القطيع جائعة، والثعلب يعشق امرأة الملـك، والملك يعشق أحد الخرفان، والقسام مات..

في يومها لم أفهم ما يقوله الشيخ قلـت كمـا قـالوا الرجل مجنون، ودوى صوت كفرقعة المدافع، وارتفع نـداء مكبر الصوت كبومة تنعق في خراب تكرر جملة واحدة:

- غادروا بيوتكم فورا، غادروا بيوتكم فورا..

وتصدي الرجال ببنادقهم القديمـة للنـداء، وارتفـع صراخ الموت، كانت البنادق قديمة سرعان ما فقدها الرجال وتراجعوا حتى أعتاب الدور.

قال الشيخ الضرير المجنون.. في صوت مـذبوح.. اليوم هو اليوم الموعود، والملعون يموت، والحـر رجـل مفقود.

قلت كما قالوا رجل مجنون، تسللت عبر الحـواري متلصصا بجوار الحائط، أنادي صبيان القرية، نـداء مكبـر الصوت وقذف المدافع يغطي على صوتي تجمع حولي ثلاثة من الصبيان، جرينا في رعب، انهمر الرصاص من خلفنـا، سقط رفاقي، ازداد رعبي وانطلقت أسابق الريح.

كنت حائرا، لا أدرك ما يحدث، ولماذا؟

الرصاص يولول حولي، ومكبر الصوت يصرخ في رعب، وظلام دامس مخيف وكلما اتجهت إلى حارة مـرق بجوار رأسي رصاص طائش، وكنت جائعاً أكاد أسقط مـن شدة الأعياء، ولكن الخوف والهلع جعلانـي أفـر كحصـان مخبول، أصرخ على رفاقي، وأتحسس رأسي، وانحرفت إلى زقاق مظلم ولكن بريق سلاح أبيض جعلني أرتـد بسـرعة، وجريت..

وصرخ مكبر الصوت يأمر الرجال بـالتجمع أمـام المسجد، لا أحد يجيب، تساءلت لماذا؟

الرصاص والظلام والخوف حولي، والرعـب مـن مجهول يعصر قلبي، وصلت إلى دارنا، رأيت مجموعة من القادمين يقفون أمام الباب، تقدمت في حذر، بعضهم يطلـق مدفعه الرشاش على الجدار، والآخر يغني، اقتربت من الباب الخلفي، سمعت صراخ أختي، مختلطًا بعويل مبحوح لأمـي، تمردت أنفاسي في صـدري وتلعثمـت خياشـيمي، تكـرر الصراخ مرة أخرى أقوى وأشد، صراخًا لطير يذبح، عقلـي تقاص، وسقط الضوء الأحمر على العالم من حولي، نسـيت الخوف اندفعت نحو الباب، لم أفكر فيما يجب عمله، انزلقت إلى صحن الدار، الصراخ يأتي من الحجرة، أختـي تمـوء كقطة ذبيحة، مرقت من الباب، سقطت على أرض الغرفـة، ورأيت رؤيا الرجل المخبول..

وطفلة ماتت بعد اغتصابها تقول:

لماذا نحن، دون خلق الله جميعا، تغلق السماء دوننـا أبوابها وتدفع بنا إلى بئر مظلمة حالكة السواد، حياتها جائعة جنياتها خبيثة، شريرة، عمقها رهيب..

وساعتها تعاطفت مع الطفلة التي سبق اغتصابها...

أمسكوا بي، وضعوا المدفع في وجهي، أمروا أختي أن تتلوى، شريط من دم العذارى رسم علامة المسيح فوق بطنها، ضحك الشاب اليهودي في خشونة، تعرى من إنسانيته، أصبح وحشًا يأكل جسدا، طار العقل وذهب الحياء، سقطت أختي على الأرض فاقدة الوعي، الرحمة من عبد نجس لا تأتي، عذاب فوق عذاب، أختي الأخرى تتلوى، تتلوى في ألم مجنون عصف بجسد منهوك، والوحش يرتشف الدم ويعطي للآخر جرعة.

أمي، أين أمي؟

أمي كالشاة الخرساء، أقعدها الذبح، والذئب يلعق دم ابنتها. الكلمات لا معنى لها، تزيد الذئب ضحكًا وسعادة جمدت عيناي، تصلبت يداي، وكف لساني عن لعق لعابي.

المنظر عربيد أحمق، وقف عامود نور، كف الوحش، شبع أو مل.

انصرفوا وتركوني، سقطت على الأرض، أرى نعالهم تتحرك، غرست يدي في التراب، نبشت لحد جدي، وعويت كذئب أجرب، وبصقت على الأرض، وسحبت الدمع على وجهي.

ولكن عيني سخرتا مني، ناديت أمي ولكني لم أسمع للنداء جوابا فقط سمعت غناء الدببة، ونواح البوم، ورأيـت الرعد يبرق لهباً ورياح العدم تصفر فوق الربوة.

قال الشيخ الضرير المخبول..

.. السماء تبكي ندما، ولكن الندم لا يسقي العطشى.

الدنيا برد، وصهيل خيول خشبية، والجوع يصـرخ في أذني، والأرض مبللة بالـدمع، ونسـاء تجمعـن حـول صغارهن، وعجائز وشيوخ ونحيب أم قروية تجري ملهوفة، تسعى نحو سراب، ومكبر الصوت يعلن:

- الرجال في ناحية والنساء في ناحية.

وبكى طفل، انطلقت رصاصة أسكتت الطفل، قذفتـه أمه في وجه المدفع وضحكت..

صاح مكبر الصوت:

- الرجال في ناحية.

وقف الرجال، بقايا الرجال في ناحية، وتقدم شـاب أعرج يتدحرج فوق الأرض، حتى وصـل إلـى صـفوف الرجال، وكما يقلب البائع في حبات البرتقال صـبيحة يـوم بارد، راح الأعرج يقلب فـي الرجـال، واختـار الأعـرج مجموعة وأبعدهم نحو الغرب، وهناك تلقفهم شخص آخـر، ثم تقدم الأعرج ناحية النساء، صاح مكبر الصوت:

- النساء في ناحية.

النساء في البيوت أمهات حرائر وزوجات ضاحكات، يتعلق طفل بذيل الثوب، تنهره أمه، يبكي المسـكين، يبتسـم الجد في سخرية:

- ما بك يا بني؟

لا شيء يا جدي، جدي رجل طيـب قـرأ الكتـب الصفراء وتعلم لغة الشك وأخيرا قال.. كله هراء..

وقلب الأعرج في النساء وانتقـى مجموعـة مـنهن وأمرهن بالانفصال عن بقية القطيع، كانت أختـي الكبـرى بينهن، في العام الماضي جاء القوم إلى دارنا، قـالوا كلامـا وشربوا ثم انصرفوا، وفي اليوم التالي ضـحك الصـحاب معي وقالوا.. يا بخت محمود.

لكن محمود مات، مات أول أمس، قتلوه..

تجمعن في كومة من السواد المذعور، الحـزن فـي بلادي أسود مثل ضفائر النساء، ضـحك، حـاملو المـدافع الرشاشة، وداعبوا النسوة بكعوب مدافعهم، شق أحدهم ثـوب امرأة، تعرت فجأة، انكمشت على نفسها، حاولت أن تسـتر عورتها تدلى ثديها، رفعت يدها بسرعة، وظهر.. ثم ماتـت من الخجل، ضحك حامل المدفع وركلها بقدمه.

دار الأعرج ناحية الصبية، كنت فيهم، ورأيت وجـه الأعرج.. راشيل ترتدي ملابس رجل العصـابات، حبسـت أنفاسي، لم أستطع، تركتها تخرج في تلاحق، رأسي يشـتعل والنار تخرج من أذني، راشيل ستطلق النار فور ما ترانـي، انتقاما لعرجها، غضبت من نفسي وتمنيت أن تعـود الأيـام لأقتلها، ولكن الأيام لا تعود، لقد ماتت الأيام، وراشيل تتقلـب في أهلي كما تتقلب في حزمة قش.

نظرت إليها، إلى رقبتها، أتخيل ضغط السكين عليها، وينغرس الصلب في اللحم الأبيض، يغوص فـي العـروق، وينبثق الدم كشلال جارف وتتدحرج الرأس وتنقلب، ينبـت من داخلها شجرة شوك، تطرح الشجرة حبات السم ويسـقط الجسد مثل فرع جاف، تحرقه النيران، ويغلي القدر بمـرق اللحم، ويفور ما في القدر ويتصاعد منه بخار المـاء، مثـل قدورنا في العيد، ويصرخ طفـل يطلـب شـيئًا، وتنطلـق رصاصة تهشم جمجمته وتنهي صراخه، والصوت يقول:

- سيروا...

الذين اختارتهم راشيل يسيرون إلى الأمام، والباقون يسيرون إلى الخلف وكنت مع السائرين إلى الخلـف، أمـي

صامتة تنظر في رعب حولها، أختي الصغرى تمسك بيدي. راحوا يضحكون ويطلقون الرصاص خلفنا صرخوا فينـا أن نذهب، أن نجري، ورصاص المدافع يجبرنا على الإسـراع وجرينا إلى الخلف وخرجنا من القرية.

مجموعة من النساء والأطفال والعجـائز والشـيوخ منهوكو القوى، جوعى، ليس في أيدينا، ولا في عقولنا شيء، نتلمس طريقًا لا نعرفه إلى مكان لا نعلمه.

أخيرا وصلنا على أول بئر فـي الطريـق، واندفع القوم، وأنا بينهم أتعثر في الأرض الرملية، لا أكـاد أسـير حتى أقع، يدفعني بعضهم وينحيني البعض الآخر، يقـذفونني بين أرجلهم، وغبار الأقدام ونحيب الأطفال وصراخ النسـوة وشتائم العجائز ولهيب العطش، كل هذا جعل السـير بضـع خطوات صعبا للغاية، ولكن البئر كانت فارغة. طين أسـود لزج، لطخها اليهود القادمون من الغرب، تركوها بئرا خربة مهدمة.

ارتميت على الأرض أطلب الرحمة، ناديـت علـى دموعي، كفت عيناي عن البكاء، بكى تمثال بـوذا ودمعـت

عيناه، نظرت حولي، وجدتهم يرتمون في إعياء بقايا شـعب مدينة..

وفجأة سمعت أزيز طائرة في السماء، كانت تقتـرب نحونا، قفزت أجري مع الآخرين، اندفعت الطـائرة فوقنـا ورمت كتلاً من النار، ثارت براكين من الرمـال والـدخان، وتعالت بعدها صرخات القوم، استدارت الطائرة عائدة، جرى الناس إلى كل الاتجاهـات، ذهـب العقـل إلـى المجهـول وتصاعدت رائحة الموت، عادت الطائرة من جديد لتصـب المزيد من الرصاص فوق فلول الهاربين الذين تدفعهم رغبة فطرية في البقاء، كفت الطائرة عن الضرب وارتفعـت فـي الجو.

كنت ملفوفًا في تل رمال، أخرجت رأسي ونظـرت إلى السماء، السماء صافية، جامدة وكأنها وقفت لحظة مـن الزمن الذي تجمد، يبدو أنه لا يعنيها ما نحن فيه، والشـمس تقف في وقار في بحر الصفاء السماوي، ورياح البحر تـأتي من بعيد، رائحة معتادة، وتذكرت أبي..

راحت عيناي تبحثان عن أبي في كل مكان، ولكنـي لم أتحرك، وشعرت أن البحث عنه ليس مهما..

.. قال الشيخ الضرير بصوت مكتوم..

.. حمدان مات، ومات الشيخ القسام..

يومها قالوا مجنون، الضابط قال والمختار قال، ولـم يمت حمدان، تذكرته.. أخي حمدان، وأحسست برغبة التهام قطعة لحم، فخذ شاة، أبي راعي غنم، وصـرت أنـا ذئبـا، وإخوتي مجموعة من الأغنام، رحت ألتهم فخذ أختي، نقـط الدم تملأ كفي، ضحكت العرجاء راشيل وصرخت في لـذة، لعق الضابط شفتيه، أشارت إليه راشيل، وبعدها رأيت رأس أخي تسقط على الأرض، ودماء تجري نهرا وقطعا من لحم، وأصابع مقطوعة، وعواء الذئب في داخلي.

رأيت نسرا رابضا فوق السهل، عيناه تبرقان مثـل ضوء الشمس، قفزت فوق جناحه، انطلق بي عبر الفضـاء، نظرت فإذا الوادي صغير، ظلال مكسورة فوق التلال لأناس مثل أمي وأبي، وشجيرات هزيلة تحمل ثمرات حمراء، ثـم بحر عظيم تتلاطم أمواجه، تتدافع وتقذف من جوفها حيتانًـا تبتلع السفن، وظل النسر يندفع عاليا حيث بيارات البرتقـال، مددت يدي وقطفت واحدة وضعتها فوق فمي، رطبة حنـون

ولها رائحة طيبة، قضمت قضمة كبيرة، سال المـال حـول فمي رطبا حلوا منعشًا.

قذفت الثمرة في وجه العرجاء، سقطت تتلـوى مـن الألم، جاء الحوت وابتلعها، هتفت بحياة الحوت وركبت فوق ظهره، وظللت أطوف بدروب قريتنا ألـتقط القـادمين ذوي الجلود السميكة، وقذفتهم إلى جوف الحوت، لم يشبع الحوت اقترب برأسه مني، حاول أن يخطف ما في يـدي، ركلتـه بقدمي وصرخت من الألم، سقط الكوب فوق الأرض وسـال الماء يتلوى بين حبات الرمل، وصاح رجل بصوت أجش:

- أحمق.

وتنبهت فإذا الكوب يرقد في كسـل علـى الأرض، والأطفال يعتصبون أصابعهم، ورجل عجوز يلطـم خديـه، وينظر إلى في غضب وهو يردد:

- ولد أحمق، ولد أحمق..

جريت رعبا من الرجل، صرخت أمي وحاولـت أن تجري خلفي، سقطت في حفرة، وظللت أنا أجري.

صدمتني شجرة وكان بها بعض الثمـرات، جـذبت واحدة وقضمتها، كان لها مذاق مثل الشهد، رقصـت حـول

الشجرة فرحا أتحسس ثمراتها الجميلة، حبات من الشهد لها رحيق الحياة يسري عبر أخاديد العطش.

ناديت على أمي، هرع القوم ناحيتي، تحطمت الشجرة، تنازعوا عليها، فتتوا ورقها وأكلوه، ولكني رأيت على البعد عدة شجيرات أخرى سرعان ما انتبه القوم لها وجروا خلفي، تدحرجت عجوز فوق التل، سقطت في حفرة، ولكنها وقفت من جديد، جرت مرة أخرى.

الشمس نار يتلظى بها عطشان هارب يمشي طريدا فوق كثبان الرمال الخالية من الظل والماء، ويوم يمر، ويومان، ثلاثة أيام والأطفال يموتون والعجائز يسقطن ويتلوى من الألم الجميع ورصاصات الطائرات وعويل المدافع، ونسقط على الأرض..

لا ندري، إلى أين؟

حينما مات الرجل العجوز، في اليوم الأول، قال رفيقاه:

- لنصنع له لحدا.

وأجاب الجميع:

- نعم.

ثم قال رفيقاه:

- نحفر حفرة، ثم نضعه.

وأجاب الجميع:

- نعم.

ثم قال رفيقاه:

- نحتاج ليد تحفر.

وأجاب الجميع:

- نعم.

ثم قال رفيقاه:

- لأننا لا نستطيع.

وأجاب الجميع:

- نعم.

ثم قال رفيقاه:

- يبدو أنه لا يوجد معنا من يستطيع الحفر

وأجاب الجميع:

- نعم..

فقال رفيقاه:

- لا خيار لنا، يرحمه الرب

وأجاب الجميع:

- آمين.

ومن يومها، تساقط الكبار، والأطفال، والنساء مثـل أوراق الخريف في بيارات البرتقال، تتساقط بسـرعة تمـلأ وديان الأرض وتدوسها الأقدام.

واليوم الرابع عدم، سنتحول إلـى عجـين الأرض، كنت صغيرا لا أعرف معنى العدم، ولكني أحسست بـه، لا، لم أحس به، ولكني رأيته في هبوب الريح وصفيرها، وذرات الرمل تأكل حشايا العين وفي أطفال يكفون عـن الحركـة، والأمهات في سكون.. يتركن أطفـالهن فـي الطريـق دون دموع.

قبل المساء رأيت ظلالاً من بعيد، بعد قليل تبينت أنها لرجال يحملون في أيديهم بنادق، صرخت بأعلى صوتي أنبه قومي ولكنهم لا ينتبهون، خشيت على نفسـي وتراجعـت، تمردت على كل الأوامر والنصائح التي انهالت من حـولي، ورحت أعدو راجعا لم أكن أرى سـوى فوهـات البنـادق والمدافع، ولم أكن أسمع سوى طلقات الرصـاص وعويـل النسوة.

ارتميت على الأرض، أحسست أن قدمي تغوصـان في بحر الرمال ونظرت حولي فلم أجد أحدا، تركوني وحيداً ملقي على الأرض لا أستطيع الحركـة، وسـمعت أصـواتًا خشنة تأمرني بالابتعاد وسمعت صوت الديك يصيح، وأرنبا يجري خلف التبة ورجلاً يضحك في مرارة، وشواء تفـوح رائحته ويتصاعد منه بخار النضج ويملأ السـماء، وأرغفـة تتساقط من السحاب مثل المطر، وسمعت خرير مياه السيل، والماء يعبر جوف الجسر ويزغرد في نشوة، يمـلأ أخاديـد وحفر الأرض الصفراء وينمو الشجر ويزهو، زهور بيضاء، وأخرى حمراء، ورأيت ملاكًا يهبط من السماء وفـي يـده إبريق يلمع الماء على حافته ويصب في حلقي رشـفة، ثـم يضع في فمي قطعة سكر، ثم يصب علـى وجهـي رحيـق المشمش.

وصحوت، حاولت أن أبقي عينـي مفتـوحتين، لـم أستطع سمعت الصوت يناديني، وأصغيت:

- بلال، بلال.

يتدفق الاسم عبر أذني في قوة وخشـونة، سـمعت الصوت يأمر شخصا أن يكف عن ضربي، دارت حواسـي تتحسس أثر الضرب ولكني لم أشعر بألم، والصوت ينادي:

- كلوا ما رغبتم، لا تخشوا شيئًا.

شعرت بخشونة الغطاء، وتمددت قدر اسـتطاعتي، وفتحت عيني رأيت جنودا حولي سمر الوجـوه، يتكلمـون مثلنا، مد الضابط يده، كان أسمر وله وجه طيب، قال:

- خذ يا بلال.

- لا..

في يوم ما قال لي أبي، الجنـود جبنـاء والضـباط إنجليز، يومها صدقته بعد أن ذقت الضـرب مـرارا علـى أيديهم.

تقدم الضابط ولمس جبهتي ثم قال:

- لقد تحسنت كثيرا.

وتراجعت أشد الغطاء حولي ربمـا يحمينـي مـن الضرب، ولكنه جلس بجواري، وقال:

- هل أنت خائف؟

أجبته في عصبية:

- لا.

ابتسم، رأيت أسنانه البيضاء، أحسست بأن نورا يشع من بين شفتيه وأن الشمس تسكن في فمه، قال:

- كنت محموما يا بطل وقلت كلاما غريبا.

فتح في رأسي نافذة، عاد يقول:

- لقد قتل اليهود أخاك؟

- نعم.

- وأباك أيضا؟

- نعم.

- وفعلوا..

- نعم، نعم.

- وهل ستأخذ بثأرهم؟

قفزت في وجهه واقفًا وأنا أردد:

- نعم، نعم..

انتظرت أن يضربني، لكمته في فكه، وقف ساكنًا في حزن، خجلت من نفسي، مرت لحظات، بعدها قال:

- لابد من هذا اليوم .

وعجزت عن التفكير عدة لحظات، تبلد ذهني، وددت أن أفعل شيئًا، أو أن أقول شيئًا، قلت:

- من أنت؟

ابتسم الرجل وأجاب في هدوء:

- ضابط مصري، عربي مثلك.

رنت الجملة الأخيرة فـي رأسـي، قـذفت عينـي تتجسسان هيئته، قال، ويبدوا أنه لاحظ الدهشة على وجهي:

- كنت أود أن أجلس معك وقتًـا أطـول، ولكننـا سنتحرك الآن..

ويوما سنلتقي، ولن أنساك أبدا.

- حقًا..؟

- نعم، ونعود معك إلى يافا، ونزورك في بيتك.

- بيتي؟ بيتنا؟

شممت رائحة الورد، أحببته، وجدت فيه أبي وأخـي وعمي وأصدقاء حارتي، تفتح قلبي له، هذا الضابط الأسمر، بحثت حولي ومعي عن شيء أعطيه له، تذكرت تميمة كانت معلقة في رقبتي، جذبتها في انفعال، وصحت:

- يا عمي، يا والدي، خذ هذه.

مد يده وأخذ التميمة، نظر إليها في دهشـة، ابتسـم ووضعها في جيبه وقال:

- يجب ألا تنس.

هززت رأسي، مشى عدة خطوات، وقال:

- مهما طالت الأيام، تذكر.

ومضى مع الآخرين، ظللت أنظر إليه، وكانت هذه أول مرة أقابل ضابطًا عربيا.

لم يبق الكثير من القوم، رحلنا إلى الجنوب، بحثـت عن رفاقي، لم أجد أحدا، بحثت عن أهلـي، فـي منتصـف الطريق عثرت على أختي، صباح كانـت تبكـي. مازالـت تبكي، لم أرها بعد ذلك إلا باكية، سألتها عن أمي لم تجـب، بكت، مددت يدي لها، جذبتني نحوها وسرنا نحو الجنوب..

الذين بقوا يسيرون، يتطلعون إلى فراغ، لا يرغـب أحد في الحديث..

تبعثرت حبات عقد الياقوت في الأرض الخراب..

طوبى للعبد المؤمن، وطوبى للمساكين أولاد الرب..

(٤)

مرت ثلاثة أعوام، منذ أن رحلت عن قريتي، تعلمت كلمات جديدة: الهدنة، اللاجئين، الاحتلال، الإغاثة، الوكالـة، كلمات نلوكها بألسنتنا دوما، فقدت الكلمات معناها وتآكلـت الحروف، تحولت إلى حفنة دقيق وقطرات زيـت وبطاقـة وتعلمت صناعة جديدة، صناعة السلال، والتسول من أيـدي الزوار، وراودتني أفكار جديدة، أذهب إلى المدرسة في غزة أياما، وأنقطع أياما أذهب خلالها لأقف في الطابور الحزين، حاملاً وعاء الدقيق في انتظار دوري.

في الطابور صادفت قوما آخرين جاءوا من منـاطق وبلدان بعيدة، سيدات عجائز، وشيوخًا وفتيانًا، كنـا جميعـا نشترك في أمر واحد وهو لعبة انتظار حفنة الدقيق.

وحينما تعلو الشمس، يأتي بعض الأجانب في أيديهم آلات التصوير يلتقطون الصور في مقابـل بعـض علـب الحلوى والبسكوت، يدورون حول الخيام، يتفحصون ويدققون النظر إلى كل شيء، بابتسامة باهتة يقذفون النقـود، قطعـا صغيرة من النقود، ويلتقطون الصور ويضـعون أصـابعهم على أنوفهم، وأحيانًا يقولون كلمة أو كلمتين ثم يمضون، قال

شاب نحيل معاول: وكلاء هيئة الأمم، وقالت أرملـة: إنهـم وكلاء الوكالة.. يتفرجون ويذهبون ويقبضون، وقال شـاب يمسك جريدة.. لقد تحولنا إلى متحف ووكالة تجارة، ونظـر إلى الجريدة ثم قال.. قالت وكالة الأنباء..

ويمضي اليوم ، وفي الظهيرة نجلس على ربوة أمام البحر، نحكي قصصا عن أيام مضت.. في المدرسـة، فـي البيارات، في دروب قريتنا قصصا عن الماضي، الماضـي فقط، والحديث يطول ولكن سرعان ما يتحول إلـى سـؤال يتردد دوما: كيف نعود؟

و.. ونضع الخطط، ونحلم بالأرض وظلال شـجرة الزيتون أمام الدار وحبات البرتقال في صحن البيت، وجـذع النخلة الراقد أمام دار المختـار، و.. ونتصـور المعـارك الحاسمة والانتقام، ولكن الوقت يمضي وصياح أهل الخيـام من أجل عودتنا إليهم، فنعود..

تزوجت أختي صباح من رجل طيب أشـفق علينـا، وكان رجلاً.. رغم ما يبدو عليه من كبر السن والشـيخوخة إلا أنه مرح وطيب المعشر، يجلس دائما أمام الخيمة يتحدث

عن بياراته وزوجته وعياله الثمانية الذين ذهبوا جميعـا دون عودة، ويداري دموعه خاف دخان غليونه.

وبرعت أختي في عمل المنسـوجات وتطريزهـا، وبرعت أنا في توزيعها وبيعها للزائرين، أشتري دخان لزوج أختي ودقيقًا وسمنًا لأختي وأحيانًا يتبقى بعض قروش أشتري بها بعض الحلوى، بل أحيانًا أشتري علبة دخان وأحتفظ بها لنفسي، وحينما ينطلق زوج أختي في الحديث عـن بياراتـه وعزه الماضي، وتنهمك أختي في مفارشها أنطلق إلى الخلاء أدخن في ارتباك وأعيش مع أحلامي..

أركب دبابة، لا ليست دبابة تماما، إنها عالم عجيب، لها ألف مدفع، بل ألف ألف مدفع..

خيال مراهق محموم محروم لاجئ، قالوا إن عالمـه خرافي، لم أصدق كلامهم ولم أصدق نفسي، المدافع والقنابل وأشياء أخرى تبرق في سماء خيالي، أقف في عظمة، خلفي جيوش جرارة مثل جيوش التتار، الله أكبر منقوشة على علم أخضر، تدور المعركة ويسقط شهداء، أشعل سيجارة أخرى، لهب (الكبريت) أخضر، قذفته في قوة، سقط الحصن، جذبت نفسا من سيجارتي، تصاعد دخان أزرق، سقطت دانة مـدفع

وتهدم جدار المعبد، الله أكبر.. صاح أحد رفـاقي، أعطيتـه سيجارتي، ابتسم وجذب نفسا ثم قال:

.. السلاح هو طريق العودة، وحينما نعـود، تعـود الحياة إلى ديارنا وحقولنا.. قاطعته قائلاً..

.. سنبني نصبا للشهداء..

السيجارة تلسع يدي، قذفتها بسرعة، قطعة معدنيـة سقطت بجوار قدمي، تحركت لألتقطها، لـم أقـدر، رحـت أحملق في النقود دون حراك، رأيت رجلاً يقف أمامي ويتكلم بلغة لا أفهمها لم أتحرك مثل كل مرة، أنقض بسرعة علـى قطعة النقود وأقول وأنا أدسها في جيبـي بعـض الكلمـات الأجنبية حفظتها، ولكني لم أتحرك هذه المرة.

الرجل الضرير كان يقول:

- سنعود يوما إلى ديارنا، والراغب في العـودة لا يتسول ولا يلتقط النقود من فوق التراب.

مصمص الرجال شفاههم وقالوا.. أنه لا يحمل هـو طعام الأطفال فليس لديه أطفال.

جرت فتاة من المخيم القريب حينما لمحت الرجـل، وقع بصرها، على قطعة النقود، وانحنت تلتقطهـا، ولكنـي

دفعت بها بعيداً، وتراجعت الفتاة في خوف، ابتسم الرجل الأجنبي وقذف بقطعة أخرى، ومرة أخرى حاولت الفتاة ولكني تناولت القطعتين وقذفت بهما قدر طاقتي إلى بعيد، وتجهم وجه الرجل وأسرع بالابتعاد.

وحينما أشعلت لفافة أخرى وجلست، سمعت بكاء الفتاة، منذ سنوات وأنا لا أبكي، لا أستطيع، ضربوني في المعسكر يوما حتى سال الدم غزيرا من جسدي ولكني لم أدمع، فقط، رحت أهتز في عنف وعيني تحدق في لا شيء، وتركت الفتاة تبكي.

دخان سيجارتي أزرق ولهبها برتقالي، وتترك مرارة في فمي، جذبت نفسا قويا ونظرت إلى الفتاة، راودتني رغبة شريرة انبثقت من داخل أمعائي، وضعت يدي على كتفها، وقلت:

- سوف أبتاع لك شيئًا.

توقفت الفتاة ن البكاء ونظرت إلي في شك، قلت:

- معي نقود، انظري.

لم ترد، ابتعدت عدة خطوات، شعرت بالمهانة، عاودتني الرغبة في أن أضع يدي على كتفيها مرة أخرى،

لحقت بها بسرعة ووضعت يدي في تردد فأجفلت في ذعر، نظرت إلى، عيونها مثل مياه البحر، مثل زرقة ميـاه بئـر السراب، انزلقت في البئر دفعة واحـدة، وأحسسـت بيـدي تلتهب، نزعتها، وقلت في تلعثم:

- إنني أبيع المفارش الملونة في السوق.

مشت فاطمة، ومشيت بجوارها شريدا تائها، تتقاذفني أمواج من المشاعر والأحاسـيس، لا أعـرف معناهـا ولا مدلولها، خطونا نحو القمة قمة تل، طالعتنا صفحة البحر.

جلسنا في هدوء، كنت مضطربا أعبث بعود جـاف، تنبهت وقذفت بالعود من يدي، سقط على عدة مراحـل ولـم يتحطم.

كان هناك حجر أبيض في أسفل التل، خيل إلي أنـه بيت مارد من.. أيام سليمان، خرج المارد يتثاءب في كسل، رأس المارد سوداء شقت صدر الحجر وخرج إلى الخـلاء، نادى عليه سليمان ولكنه ضحك في سخرية، رأيت راشـيل تقترب من المارد وتمسح على رأسه في دلال وهو يتمطـى في خمول، داعبته تحت سرته وشهقت بابتسامة ماجنة، ثـار

المارد وطالب العدل، قذفتها بحجر تلقفت الحجر ورمتني به، صحت في غضب:

- ملعونة.

- من؟

صاحت صاحبتي، أخذت يدها في يدي وجريت، كان بي شوق للجري، للهرب، للصراخ، لأن أسب أحداً، كانـت بي رغبة في البكاء وجريت عبر أخدود تـاريخي الطويـل أتعثر بكلمات جوفاء وخوذات جنود بلهاء وأسماء معـارك، صحت:

- آه، آه..

.. يقول الشيخ الضرير.. لا تجعل الكلمات في فمك، بل اتركها خلف ظهرك، وانظر إلى موضع قدميك وتبول..

يومها قالوا مخبول، قلت كما قالوا ومضيت.

نظرت على رفيقتي وابتسمت، تذكرت بعض الصور من أحلام رآها بالليل قالت في وجل:

- ما بك؟

ابتسمت مرة أخرى، وتصورت خصرها بين يـدي، وقلت:

لا شيء..

ولم أنم ليلتها حتى الصباح.

وفي الصباح تقابلنا، فاطمة وأنا، هناك بجوار شجرة في العراء، جلسنا، كان بيدي بطاقة الدقيق، ومعـي بعـض النقود ولفافة تبغ من صندوق الأمس، رحت أتأملها، بشرتها السمراء، وجه مستدير، وعيون عميقة حزينة، شعرها فـي ضفائر تهتز في مجرى الظهر، رشيقة الحركـة فـي دلال، لاحت استدارة ظهرها.. ثارت في نفسي رغبة أن أتحسسها، أو أضع يدي على شعرها الطويل، انبثق في ذهني خـاطر: كيف خرجت هذه الفتاة من وحل المهجر، أسرعت يدي إلى شعرها ألمله، أجفلت الفتاة وتراجعت، حاولت مرة أخـرى ولكنها دفعتني في رفق.. نظرت إليها في عتـاب، تحاشـت نظراتي، وقالت في ارتباك:

- لن نحصل على دقيق اليوم ، لأننا نلهو هنا!

قلت، وأنا أزيل ما علق على ملابسـي مـن أتربـة الخجل:

- نرسل في طلبة من القدس.

ابتسمت في سعادة، واندفعت تجري نحو مقر المعونة، جريت خلفها وكنت مسحورا بشيء ما لا أستطيع معرفته أو تبينه، وكأني أدخل عالما جديدا مسحورا، وشعور بلذة أجهل مصدرها.. شيء ما يدغدغ حواسي.

الطابور طويل، وسواد الملابس يرسم خطًا ملتويا تحت الشمس، ولفائف الأطفال فوق الصدور تنعق مثل البوم في صدور شجر الليمون، ورجل أبيض لا يتكلم ولكنه ينظر في صمت، اندفعت فاطمة، اندفعت خلفها، اصطدمت بسيدة عجوز، انسكب إناء اللبن على الأرض، صاحت العجوز في ألم:

- ملعون.

نظرت إلى اللبن المسكوب في حسرة، فكرت في أن العقه، جذبتني عيون الغضب، تناسيت الفكرة واقتربت من فاطمة، راحت السيدة تسبني في عنف وبصياح مخبول لعنت كل الأشياء، الشيطان واليهود والمخيمات والوكالة، ازددت التصاقًا بفاطمة، وحمل إلي هذا التقارب اللذة والأمن.

الدنيا بطاقة وخيمة وذكريات، ونقود صغيرة تقذفها الأيدي.

ومع هذا فالأمر ليس غريبـاً، النـاس يتزاوجـون ويتناكحون ويتناسلون، ويلعبون كبارا وصـغارا، وأحيانًـا يتعاركون على لفافة تبغ أو حفنة من الدقيق، وأيضا بسـبب الأطفال، كيف يضرب ابن صالح الكبة ابن شيحة الجميـل؟ وترتفع الأيدي وتتطاير الكلمات ثم يـأتي المسـاء.. فيرقـد الجميع في أكوام بشرية يحلمون.. ويشهقون في لذة.

هزتني فاطمة بعنف، وتذكرت أنني أسبح في خيالات وهمية، ومعارك خيالية وأسمع طنين الأخبار المسمومة؟:

- إلى أين؟
- لا أعلم.
- والدقيق.
- لا أعرف.

.. كنت منذ قليل أعرف، أعرف شيئًا أو مجموعـة أشياء، ولكني الآن لا أعرف شـيئًا، وطنـي أمـي أهلـي أصدقائي عالمي. أين؟ ولماذا وكيف؟ وكل علامات الاستفهام في لغتنا، ولا إجابة!

أنا أبحث عن لذة امتصاص قطعة حلـوي، أو عـن طريقة أندس بها في صفوف الناس، في صفوف البطاقـات

الصفراء لكي أمد يدي وأحصل على نصيب من اللبن أو الزيت، أو قطعة خبز أو صابون أو قبضة ماء نجس من أيدي الرجال الأطهار الشرفاء الذين قدموا من الشمال، وأتلصص خلف كلب ضال أقتله أو قطة أخنقها، أو حتى قطعة حجر أفتتها وأدور حول الخيام لاهثاً لا أدري ما أفعل بنفسي، أنظر إلى زوج أختي وهو يلعق سيجارته قبل أن يدخنها ثم يطلق زفرات الحسرة مع دخانها، وعيون أختي وهي تمسح التراب ويداها المعروقتان تتحركان في بطء حول الخيوط القطنية، وخبز معجون بزيت مر، وسمكة قضيت يوماً كاملاً أترقب صيدها، تشدها مني قطة شرسة.

- إلى أين؟

- لا أعرف

فاطمة تهزني، تشدني، تصرخ في وجهي؟

- إلى أين؟

لا أعرف، أحيانًا أسرع نحو التل، أنظر إلى الشمس تشرق من خلف الديار البعيدة سألتها: كيف حال جداري، والنبع الذي ينساب أسفل الجسر، ورائحة الورد، وحبات

الكرز الأحمر؟ كيف الرمل، وشجرة الزيتون، كيف المسجد ورائحة الأفران في الشتاء، كيف يا شمس؟

- أنت مريض.
- تذكرين، مقعدي أمام الدار، ذلك المربع من الضوء.

طبعا تذكرين؟ مربع الضوء في ليل القمر، وأقاصيص الشطار وصلاح الدين وحرب الكفرة، والسيف المسلول ورأس الغول، والملك النعمان، وبدر البدور، والشاطر حسن..؟

- أنت مريض بالحمى.
- بالتأكيد أنت تذكرين، يقولون إن خلايا الإنسان لا تنسى ما تفعله أو تسمعه حتى يوم الحساب، في الآخرة، حينما يقسمون الناس إلى نوعين، قسم الجنة وهم الأبرار الطيبون، وقسم الأشرار وهم الناس التعساء، لا أدري نحن من..

فاطمة قولي لي: نحن أشرار أم طيبون؟

- أنت محموم ولا شك؟

- خيام مزقها الطل وسهد الليـالى وهـواء البحـر المندى بدموع الأرامل واليتامي.

وحكايات قديمة، وسهام وسيوف ومجـد لا يـزول، وقصاصات أوراق قديمة تحكي عـن يافـا وعكـا وقـلاع وحصون.

تلك أيام لن تعود، يومها قالوا على الشيخ الضرير..

مخبول ورب القدس، ويومها قلت كما قالوا: مخبول ورب القدس.

- أنت ترتعش، سآخذك إلى أختك.

لا لا، العيون السود هجرتني، هربت مني، تركتنـي للألم وحيداً لا، أرجوكم قولوا لها، سأموت إن تركتني، إنهـا قدري، وسر تعاستي، لم تجب؟ قولوا لها مرة أخرى، قلـتم مرات، لا يهم قولوا لها دوما، يا حبيبتي يا قدري لا تتركيني وحيدا.

وشعر أسود مثل ظلام الليل يلتف حول عنقي، جدائل الشعر الطويل الحبيبة تخنقني، لن أسكت، سأصرخ بـأعلى صوتي..

عرفت معنى أن يكون الإنسان لاجئًا.

لم تلعق الدببة وجهي؟ ونسور جوعي تنهش لحمـي وأفاعي وجيش الحشرات، وقنابل، ومدافع تصـرخ تتلـوى، ودماء تجري انهارا..

لم أنا لاجئ؟

أحسست بيد رجل خشنة على وجهي، فتحت عينـي، كان رجلاً طويلاً ونحيفًا، ابتسم الرجل في بلادة وقال:

- أنت مثل القطط.

وجاءت صباح بقدح من القهوة للرجل، كنت راقدا لا أستطيع الحركة، ولكني أشعر بما حولي، شرب الرجل قـدح القهوة على دفعتين.

ووقف بسرعة ثم نظر إلي وقال:

- كنت ستكلفنا الكثير، والآن ها أنت شفيت.

ولم أجب الرجل، ولكنه قال بعد لحظة:

- تصريح الدفن يحتاج إلى إجراءات معقدة.

وسكت لحظة، ثم أضاف:

- ومال كثير.

دفن الموتى يحتاج إلى تصريح مثل الحصول علـى بطاقة تموين..

وخرج الرجل وجاءت أختي، قالت إنه أخذ منها بعض المال لكي لا يسأل عن تصريح الدفن، حتى لا تعرف الوكالة وينقصون التموين، كانوا يعتقدون أنني ميت.

ولم تمض سوى أيام، وكنت أقف على قدمي مرة أخرى أبحث عن فاطمة ووجدتها وجلسنا معا، كنت قد فكرت وقررت شيئًا في نفسي..

الهرب، الهرب من حياة ممزقة.

ارتاعت فاطمة من الفكرة، بكت وقالت كلاما كثيرا، وكان هذا، بقدر ما أسعدني لتمسكه بقدر ما هزني وأحزنني، ولكنني كنت قد قررت، الهرب إلى مصر، حيث كان يتعلم أخي حمدان ولم يكمل، قتله الإنجليز في سجن يافا، سأتعلم في الأزهر وأعود، قالت فاطمة؟

- ولكن الإنجليز في القنال، في الطريق؟

- لا يهم، حتما سأجد طريقاً وأصل.

- وأختك؟

أختي ذات العيون الحزينة، المنكسة دائما، الصامتة دائما، لم تعد منذ أن هجم عليها اليهود في بيتنا، لم تعد لي ولا لنفسها، تنظر إلى المجهول يشق بطن الغيب وتظهر

المعجزة، ولن أجلس أنا الآخر أنتظر ما تقذفـه لنـا بطـن الغيب.

هناك خاف الوديان يوجد شيء ما، جديد لامع.

حتما، هناك خاف الوديان أشياء تسترعي الاهتمـام، وربما أجد الإجابة على أسئلتي: لم؟ وكيف؟ وماذا بعد؟

كان الفجر حزينًا.

صعدت فوق التل أنظر إلى مواقع قريتـي، نظـرة وداع، أتشمم ريحا تأتي من عشب ذكريات الـدار، تـذكرت الرجل الضرير، كان يقول الشعر أحيانًا ويذكر فـي شـعره أطلال المدائن والقرى وبكاء الحمام والعشاق، وكنت ساعتها أنظر إلى حوائط الدور وأتخيل لها أفواها تحكي بها، وأحدق طويلاً لكن لا شيء سوى الصمت، وكنت أقول كما يقولون: مجنون ذلك الشيخ.

قال لي ذات مرة ضابط عربي: لا تنس.

أبدا لن أنسى يا رجل، وداعاً يا فاطمـة، وسـتظل عيناك فوقي تطلان على، تذكرني دوما..

ورحلت..

مرت ثلاثة أيام، أقتات بخبز جـاف حملتـه معـي، والطريق سهلة بجوار البحر قليلاً أتوارى خلـف الأشـجار والتلال إذا رأيت شبحا لا حد، كان لدي شعور بأنهم سـوف يمسكون بي ويعيدونني إلى المخيمات.

ومضى الزاد مع الأيام، ونسيت خوفي من النـاس، وجعلني الجوع أتلهف على رؤية إنسان، وكنت قد وصـلت بلدة العريش، تسللت إليها في الظلام، مجموعة من البيـوت المتواصلة، ثم أشجار نخيل كثيرة الظلام يجعل من أشـجار النخيل أشكالاً مخيفة، المنازل مغلقة، طلقات نارية تأتي مـن بعيد، ثم لحظات من الصمت، صوت ممدود مجروح وسـط الليل، اقتربت من جدار منزل صغير، جلست في خوف.

ذاب عقلي وسط ضباب الخيالات المرعبة، الجـوع والبرد والخوف في ظلام مدينة، تمـددت أحـلام الفـزع، صارت حقلاً من نبات سام يتوسطه مجموعة مـن أخاديـد الزمن الحجري.

هزتني يد جندي في عنف، توقفت مذعورا والتصقت بالجدار حاول أن يقترب مني، ابتعدت قليلاً، قال الرجل فـي هدوء:

- ما اسمك؟

غسلت وجهه بعيني المذعورتين وتلفت حولي ألتمس طريقًا للهرب، يبدو أنه فهم هذا، أمسك بي، وقال:

- لا تخف، هل أنت لص؟

أجبته بسرعة:

- لا.

- من أين؟

- من قرية أم السلول بجوار يافا.

وضع الجندي ذراعه حول كتفي وجذبني إليه وهـو يقول:

- من اللاجئين؟

كنت أود أن أقول لا، ولكني سـكت، أنسـت إليـه، وقلت:

- نعم.

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الأزهر، في مصر.

ضحك الجندي، وجذبني لأسير معـه، حاولـت أن أسرع في مشيتي ولكنه كان يعدو في مشيته، أو هكذا خيـل لي، عدوت بجواره، كان يضحك وهو يردد:

- الأزهر، مرة واحدة!

ثم توقف وسألني جادا:

- ولماذا الأزهر؟

قلت وأنا ألهث:

- لا تعلم.

أخذني الجندي إلى دار قريبة، وجدت بهـا طعامـا وجنودا رحت أقص حكايتي عليهم وأنا أبتلـع الطعـام مـع نصف الكلمات وحينما انتهت قصـتي، كنـت قـد شـبعت وشعرت بالرغبة القاتلة في النوم.

توارت أحداث الأيام الأخيرة، خلف حائط زجـاجي، وقفت فتاة النرجس خلف الزجاج، ابتسمت الفتـاة فـي دلال ورفعت يديها في دلال وتظاهرت بالرغبة في النوم، صـاح جندي أسود مكسور اللسان.. الليلة ناديـة.. ضـحك آخـر وقال.. شكرا هربت الفتاة وجرت مع سحابة بيضاء عبـرت

سماء الحجرة بعدها هلل الجنود ولكزني أحدهم، ابتسمت في بلاهة.

قال الجندي، الذي صحبني:

- هناك سيارة ذاهبة إلى الإسماعيلية، سيارة التموين سأحصل لك على مكان بها.

شعرت بسعادة جارفة، رحت أردد كل كلمات الشكر التي أعرفها، ولكن الجندي الطيب قال في هدوء:

- ربما أمسكوا بك في القنطرة، أو في الطريق.

حملقت في دهشة، وصحت:

- من؟

أجاب بنفس الهدوء:

- الإنجليز.. أو جنود الحدود.

ارتفع إلى رأسي سيل من الدم الساخن وهتفت فـي غضب.

- هنا أيضا؟!

أغرقتني الضحكات من كل جانب، ضـحك الجنـود حتى الرجل الطيب ضحك هو الآخر، سخروا منـي ومـن

جهلي، وربما سخروا من الوضع كله. قال أحدهم وهو يمسح ضحكته من على شفتيه:

- وربما الفدائيون.

انطلقت الكلمة مثل رصاصة في أذني، نظرت إليـه وسألته:

- من؟

تطوع آخر بالإجابة؟

- إنهم يقتحمون المعسكرات ويدمرونها، ولا يقـف أمامهم عائق.

- لماذا؟

- من أجل الجلاء، الحرية، حرب التحرير.

تشابكت الأصوات والكلمات:

- يجب أن يخرج الإنجليز من القنال.

- واليهود من فلسطين.

- ليس بالكلمات، فقط بالدماء.

- ولا بالدماء فقط، بل..

وأخذوني إلى السيارة، كان السائق رجلاً ضخما لـه شارب أسود غليظ يغطي نصف الوجه، مرح، يلقي بقفشـاته

إلى من حوله، رحب السائق بي في فتور، أجلسني بينه وبين مساعده (عم جلال)، صهلت السيارة الضخمة، وحينما أطلق لها عم برعي العنان كانت تنهب الطريق إلى مصر.

كنت في شوق إلى رؤية النيل، الأرض الخضـراء دائما، إلى كل ما وصفه لنا أخي حمدان مـن معـالم البلـد الحبيب، إلى شوارع القاهرة القديمة، إلى مجالس الشيوخ في صحن المسجد، إلى صلاة الفجر في الحسين، إلى حـواري ملتوية تفوح منها رائحة حكايات الزمن الغابر، إلى كل شيء في ذلك المكان المسحور الذي كان يصفه لنا حمدان، فكـان حديثه كعاشق ولهان، يصيب قلوب سامعيه بهوى حبيبه.

ظللت متفتح الذهن إلى ما يمر حولي في الطريـق، وكلما أحسست بدبيب النوم، تذكرت عيون فاطمة، وقريتـي (أم السلول) ودماء أختي وكلمات الضابط المصري، حتـى أحفظ الطريق، لأنه طريق العودة.

حاولت أن أرسم صورة في ذهني عن الأزهر وكيف يكون والطريق إليه، تحللت الصور وتشابكت بقاياهـا، لـم أتبين ملامح صورة واحدة، نظرت إلى عم برعي وسألته:

- هل رأيت الأزهر يا عم برعي؟

ضحك الرجل، ضحكة خشنة، وقال:

- طبعا، منزلنا يطل عليه

نظرت إليه في إعجاب، سألته:

- إذًا لقد تعلمت في الأزهر؟

- أبدا..

وجمت، شعرت بخيبة الأمل، عاد الرجل يقول:

- كنا فقراء، وكان علي أن أبحث عن عمل أتعـيش منه وأسرتي.

حزنت من أجله، أشفقت عليه، حاولت أن أبحث عن كلمات أقولها، لم أجد. نظرت إلى الأمـام، كانـت سـحابة بيضاء تسير أمامنا، حاولت السيارة أن تتجنبها ولكنهـا لـم تستطع، لقد داست السيارة على قلب السحابة، سمعت صرخة طفل.

قال (عم برعي) بعد عام من الصمت:

- ولكن لماذا تسأل؟

أجبته وأنا أحاول أن أداري ما بنفسي من زهو؟

- سأدرس في الأزهر.

هز رأسه وهو يردد:

- عظيم، عظيم.

وسادت لحظات صامتة، رأيت قبابا بيضاء، ودروبا تفصلها الأعمدة، وشيوخًا يتلون الدرس، وحروفًا مثل تماثيل من رخام، و..

- هل تحفظ القرآن جيدا؟

قلت وأنا أسبح مع حلم يحاول الهرب مني:

- لا.

تفرس الرجل في وجهي بدهشة، وقال:

- كيف؟

أحسست بخطورة الأمر، تركت الحلم يهرب، وقلـت في تردد:

- أحفظ بعض الآيات، كان أبي يتلوها في الصـلاة، وفي المدرسة لم ندرس شيئًا منه، كانت مدرسة إنجليزية.

اعتدل (عم برعي) في جلسـته، وزاد مـن سـرعة السيارة، وقال في أسف:

- خسارة!

صرخت في ضراعة:

- كيف؟

لم يجب، أخذ يغني مقطعـا مـن أغنيـة مشـهورة بالإنجليزية، ثم خاط بينها وبين أغنية شامية، وبعدها صـفر بفمه لحنًا لم أفهمه وفجأة كف.

شرح لي (عم برعي) كيف أنه من الضروري على من يرغب في دخول الأزهر أن يكون حافظًا للقـرآن كلـه حفظًا جيدا، ولذلك فإن الأولاد الذين يرغبون أهلـوهم فـي إلحاقهم بالأزهر يواظبون على تحفيظهم القرآن منذ الصغر.

وكانت هناك نقطًا للحراسة علينا أن نمر بها، وحينما كنا نمر بإحداها، كان عم برعي يأمرني بـأن أنـدس بـين الأقدام ولا أتحرك أو أحدث صوتًا حتى نعبرها.

أصابني، ما قاله عم برعي، بالهم، فجلسـت حـزين البال، أفكر في أحلامي التي تبخرت في أول الطريق.

ومضت الطريق واقتربنا من القنطرة، وكان لزامـا علي أن أدبر لنفسي طريق التسـلل إلـى خـارج منطقـة الحراسة، ثم أقابله في الجانب الآخر بعـد أن يفـرغ مـن إجراءاته.

وقفت السيارة، وخرج عم برعي وتظاهر بإصـلاح عطب ما في المحرك، تسللت خارجا من كابينـة العربـة،

رأيت سورا من الأعمدة، ولكني خشيت أن يمسك بي أحدهم، جريت عدة خطوات، بعدها رقدت على الأرض، اندفع ثلاثة شبان نحو سيارة عسكرية إنجليزية كانت تقف على رصيف الجمرك وقذفوها بقنبلة، وأحدث دوي القنبلة المنفجرة هرجا كبيرا واندلعت النيران في العربة وسقط جندي كان يقودها وفر آخر وهو يطلق النار من مدفعه لحمايته، شعرت بنشوة تغمرني وأخذت أنظر إلى السيارة الإنجليزية وهي تحترق وينفجر ما بداخلها، وترتفع الشظايا إلى أعلا ثم تسقط على الأرض بسرعة.

كانت هذه فرصتي، تسللت تحت ستار حالة الارتباك والضجة التي أحدثتها القنبلة، خرجت إلى الناحية الأخرى، بعض اللنشات كانت على وشك الإسراع إلى البر الغربي من القناة، تعلقت بأحدها وحينما اقترب الشاطئ قفزت إلى الأرض، جريت حتى أول الطريق، كنت في أشد حالات الارتباك والخوف، لاحظت هدوء المدينة رغم أن الحادث لم يمض عليه لحظات، بعض الجنود الإنجليز يركبون سيارة صغيرة، جندي بوليس ينادي على بائع يتشاجر، سيارات النقل تقف أمام مقهى صغير.

ورأيته، عم برعي، كان يجلس في هـدوء يرتشـف كوبا من الشاي في استمتاع، وجلس حوله، بعـض الرجـال يضحكون في نشوة، أشار علي أن أقتـرب، تقـدمت فـي تلصص، ضربني على ظهري وضحك في نشوة، جلست إلى جواره، أعطاني رغيفًا وقطعة من الحلوى وكوبا من الشاي.

بعد لحظات، ولم أكن قد انتهيت من طعامي، نهرني عم برعي بشدة وأمرني بالذهاب إلى السـيارة لحراسـتها، أخفيت غضبي من معاملته لي، وأسـرعت إلـى السـيارة، جلست بداخلها وأكملت طعامي في ترقب.

وطوال الطريق من القنطرة إلى الإسماعيلية ظل عم برعي على غير عادته، يسرع أحيانًا ويهدئ السرعة أحيانًـا أخرى، وتوقف ثلاث مرات في مناطق خالية، وفي كل مرة يخرج إليه بعض الشبان مسلحين ببنادق، وكـانوا يعطونـه أشياء ويأخذون أشياء أخرى لم أتبين كونها، وهو لا يـتكلم وكذلك الشبان.

وأخيرا، لاحت مدينة الإسماعيلية، مجموعـة مـن البيوت المتباينة في الطول والسمك، راح عم برعـي يغنـي بعض المواويل المصرية عـن الحـب والصـبر، وارتفـع

الصوت من حنجرة مخنوقة بدخان اللفـائف منـدداً بـالظلم والقسوة وهجر الحبيب، وصلنا على حديقة كثيفـة الشـجر، وتوقف وهو يقول:

- اهبط الآن، وسر بجوار هذه الحديقة حتى تصـل إلى كشك للمرور ثم اعبر الطريق إلى الجانب الآخر وسـر به حتى تصل إلى أول منزل وأجلس هناك حتى آتيك.

لم أعلق بشيء. كنت مأخوذًا بالغموض الذي يحـيط به، وانطلقت وبي بعض القلق، ولكن به سحراً يشدني إليـه ويجعلني أثق في كلماته، ثم إنه الأمل الوحيد فـي عـالم لا أعرفه.

تتشابك الجمل والكلمات للغريب في بلد يراهـا لأول مرة، مرت ساعة وأنا أحاول أن أسقط في دوامة الحلم، ولكن لا فائدة، العقل واقف كشرطي مرور أحمق يضـئ الضـوء الأحمر لكل سيارة تمر ويسأل سائقها عـن الاتجـاه الـذي سيسلكه. مضى الوقت، رأيت السيارة قادمة، أشار عم جلال أن أركب، لم تتوقف السيارة بل تمهلت حتى قفـزت إليهـا وانطلقت مرة أخرى بأقصى سرعتها، لاحظت أن يـد عـم

برعي جرحاً ينزف دماً، سألت، ولكنه نظر إلي في عتاب.. ولم يجب.

وصلنا إلى ميدان فسيح، سيارات كثيرة، ومحـلات وعربات يد محملة بأشياء غريبة لا أعرفهـا وأراهـا لأول مرة، أصوات مختلطة، ممدودة منغمة.. ووقفت السيارة فـي أحد أركان الميدان، وهبطنا جميعا، سرت عدة خطوات فـي ترقب جذبني عم برعي إلى داخل مخزن كان مفتوحا.

في هذا المخزن تعرفت لأول مرة علـى أصـدقاء العمر الأول، برهان أسمر نحيف، شاب في مقتبـل العمـر، يدخن بشراهة، غائر العينين عصبي الحركة، صامت، يرتدي سروالاً وقميصا من لون واحد، ويعمل سائقًا.

زكي، أو (زكوة) كما يطلقون عليه، ربعة القوام، ذو وجه ممتلئ يرتدي جلباباً أزرق بأكمام واسعة، يتدلى شـعر رأسه بغزارة، طلق اللسان، ويعمـل حمـالاً فـي مخـازن البضاعة، ثم.. ثلاثة آخرون في أواسـط العمـر، يرتـدون ملابس تشبه ملابس الجند ويعملون في معسكرات الإنجليز، داوود طويل نحيف، أشيب الشعر قليلاً، قليل الكلام، يعمـل أميناً لمخزن المهمات بمعسكر الجيش الإنجليزي، هذا الرجل

كان له تأثير كبير، فيما بعد، على تعليمي، جلال، عم جلال، مساعد الأسطى برعي، الرجل السمين الذي يتحـدث دائمـا على طريقته الشرهة عن الطعام، ولكن ما أخطره؟ وجـابر، القصير النحيف، الضعيف كفقير هندي يتعبد في صـومعة، الماكر كثعلب عجوز جائع، السريع اليد واللسـان كـومض كلمة حق في عصرنا.

ومضت الأيام، زاد فيها تعلقي بأصـدقائي الجـدد، وزادت حيرتي وسط ظلام حالك من السرية والغموض داخل نفسي وخارجها، وبادلوني حباً بحب، رغـم صـغر سـني، وأفسحوا لي مكاناً بينهم، وأسكنني عم برعي في منزله كمـا التحقت بعمل في المقهى، مقهى الميدان ألبي طلبات الجالسين وأوزع الماء، وأقوم بنظافة المكان ورشه بالماء، مرتين فـي اليوم ، في مقابل عشرة قروش.

أحيانًا تقف تفاهات الحيـاة فـي طريـق الإنسـان وتستغرقه، بل إنه يعتبرها كل ما في الحياة، وتمضـى بـه الأيام في دوامة السحر العذب لحياة خاملة، ويستمتع الإنسان بلذة مضغ قطعة لحم، ودهن يسيل حول فمه، تلعـق القطـة

الدهن من حول الفم، وتسري سعادة المـوت فـي الجسـد البشري.

ازددت معرفة بعملي في المقهـى وطبـائع زبائنـه الدائمين وسعدت بما أكسبه من عملي، بل فكـرت فـي أن أقتصد منه شيئًا، أختي تحتاج إلى ثوب جديد أحمر يلمع في ضوء القمر، وفاطمة ستكون باهرة الجمال في ثوب فضـي يلتف حول الجسد المعشوق ولكن.. لهفي على شيء ضـاع مني، لهفي على أيامي، على دموع سكبتها في ماض مظلـم في عصر سحيق، لو استطعت فقط أن أقول آه، لو استطعت فقط أن أولول مثل النسوة في مأتم لرجل عزيـز، ولكـن.. سعيد بأصدقاء جدد، وبمال كسبته، وحزين لعدم تمكني مـن دخول الأزهر، ولا أستطيع مشاركة الرجال في أحاديث جادة يعملون على إقصائي من مكانهم أثناءها ويرسـلونني إلـى أماكن بعيدة أجلب لهم أشياء غير ذات أهمية.

دوامة الحلم، تيار من المعايشة الذاتية، تصنع لنفسك وبنفسك أحداثاً هامة، تكون أنت البطل، والمتهم والبـريء، الظالم والمظلوم، أسد الله في أرض الكفرة، ورسول العـدل في أرض الجور، وشعلة الخير والنور في أرض الخـراب،

وتعود لكن مثل جبل من حديد اللمات ثقيل على أسطر الصفحة لا يتحرك، ويتوقف السيل العذب لقطرات رحيق الشهد العلوي المقدس ليحل محله مرارة واقع العصر المتخاف، حيث تصبح الكلمة قيد، والهمسة قيد، والصمت قيد، قيود من ذكريات تكبل عقل ثائر لا يعرف كيف يثور!

عدت إليهم في المخزن، رأيت وجوماً على الوجوه، وحزناً في العيون، درت حول الرجال، أقول كلمة أو اثنتين، ولكن الشفاة مغلقة في ألم، حاولت أن أثير عراكًا، لم يشاركني أحد، وقف داوود، نفرت يده من جسده وارتفعت في الهواء ثم هبطت مذبوحة بجوار ساقه، تشنجت عضلات وجهه، وقال:

- برعي مات.

صرخ الرعب في قلبي، ارتفع عويل النساء، سقطت من عيني دمعة غطت الضوء، رأيت ظلاماً، وفي الظلام لمحت بئراً، في البئر ثعبان يتلوى ، ارتطم بجدران البئر، صرخ الثعبان وبكى في حزن، ارتفع الدم إلى رأسي..

قدري منحوس، من أحببته مات، وقبله مات الحجر الأبيض الراقد أمام دارنا، وارتفع الثعبان إلى أعلى الجدران،

نظر إلي في صمت، خيل إلي أنه يقول شيئًا، أو ربما سمعت صوتاً آخر يأتي من بعيد، قال الصوت.. اقتـل مـن قتلـه، وادفع سكيناً في صدره ليسيل دمه، لتمسح به رأس المقتول، ربما يساعده ذلك يوماً ما.

وقال صوت آخر.. انتقم من قتلة المسيح، ولتكن صرختك تشق عنان السماء، لأن السماء أصحبت أكثر قسوة.

وقال الشيخ الضرير.. ادفع شيئًا للحارس، ربما يعطيك شهادة دفن وسلاحاً، وربما يعطيك زق نبيذ وفخذ لحم..

ونظرت.. فإذا الجدران تبكي، وقطط، تموء، وبعض الكلاب ترقص، وسألت: من هؤلاء؟

قالوا: أشياء ماتت من زمن.

وعدت أسأل: ولماذا يتكلمون؟

قالوا: لأنهم ماتوا من زمن؟

وضحك القمر، ووقفت طفلة تبكي وتقول: أين أبي؟

وذهب القمر، وجاءت الشمس، والطفلة تبكي وتقول: أين أبي؟

وذهبت الشمس وجاء قمر، والطفلة تبكي وتقول: أين أبي؟

فاطمة الحبيبة، مخيمات اللاجئين، غزة

أنا بخير..

من قال إنني قتلت؟

مجرد جرح بسيط في كتفي، جرح بسيط في الكتـف في مقابل عشرات من الرءوس المقطوعة، الريح والخسـارة لعبة الحياة الأبدية، المكسب في جـانبي، الإنسـان يصـاب بجرح وهو يسير على إفريز الشارع بينما يلهو فكره حـول أكلة دسمة أو فكرة خبيثة تعشش داخله.. الجرح في معركـة فدائية وسام شرف.

نقلوا إليك خبراً كاذباً، ولم أقتل.

أنا في شوق إليك، وإلى ديارنا

أنا في شوق إلى العودة، وطريق العودة يبدأ من هنا، من هذا الجرح، الجنود البؤساء يرحلون، جاءوا من عـوالم مختلفة تحركهم رغبة رجل مجنون، يجلس في حجرة تقع في منزل أنيق بأحد شوارع لندن، يشرب الشاي في الخامسـة، ويتناول طعامه في الثامنة، شريحة من الخبز ونبيـذ وزبـد وقطعة من فخذ خنزير، هكذا يكفي، الرجـل يسـير وفـق

تعليمات الأطباء، كأس من دم إنسان أسود مخلوط بقطـرات من دم إنسان أصفر، والأجمل إضافة محلول نخـاع امـرأة سمراء، ثم يجلس بجوار المدفأة، ابنته المدللة، مدمنة الخمـر والانحلال والتفاهة، تجلس على ركبتيه، تقول فـي ملـل.. أخبارك لم تعد تثير في نفسي البهجة. يبتسم الرجل ويمـتص شهوة تسيل من فمه، ويقول.. ما العمل؟ تعود فتـاة الرجـل لتقول.. أريد مزيداً من الدم والمال والخمر، مزيداً من الآلهة العطشى لدم الإنسان.

وتأتي أخبار من باريس.. تقول القاهرة، يلتهب لسان الرجل ويصيح في شراسة.. احرقوا المدينة، مساعده يقول.. الجنود يا مولاي يهربون.

الفدائيون ينسفون الأصنام في صدور عسكر الملك، يهرب الرجل الأنيق إلى منزله الريفي.. ليستريح.

وعندما يرحلون، وهذا أول الطريق، تبـدأ مسـيرة طويلة، لثعبان بشري يمر بيافا، والناصرة، والقدس، وقريتي أم السلول، يلتهم أفاعي السحرة وبعدها يا حبيبتـي، تسـقط الأقنعة، ويقطع السحرة أيديهم، ونعود يا حبيبتي إلى ديارنا..

فاطمة الحبيبة..

وصلني الخطاب، مع (حسام)، شكراً لـك، تحيـاتي وحبي..

(بلال)

***

كان الوقت مساء، خرجت من المخزن أحمل أوامـر برهان إلى أفراد الكتيبة، مثلما أفعل كل يـوم، درت علـى المحلات والمقاهي بالطريقة التي تعودت عليها.

وفي الموعد المحدد، اجتمع الرجال في أول حديقـة المانجو، أو الموقع رقم (٨) كما كنا نطلق عليه، كنت أقـف بعيداً لكي أعطي إشارة الخطر أو الأمان، انتظرنـا برهـان ولكنه لم يحضر، القمر يعلو في السماء، عربات الجيب تقوم بمناورة على الطريق المؤدي إلى المعسكر رقم ١٢، الألغام في جوف السلال والأيدي قابضة في توتر علـى البنـادق، وصوت ذكر الضفدع فاقعاً وسط هذا السكون المعتم.

مضى وقت كجبل موسي في سيناء، سمعت صـوتاً لأرجل قادمة، وحشائش تتحطم، أطلقـت إشـارة التنبيـه، جاوبتني بسرعة إشارة الرئيس، برهان جاء، ظهر للرجـال في خفة، انسل وسطهم، وقال:

- لقد علموا بتحرك الليلة.

برقت العيون في انتفاضة الخطـر، برهـان عـادل يقول:

- سيحدث تغيير بسيط.

وقال كلاما مبهما، نظرت إلى النجوم، كنت صغيرا وسط عمالقة، لا يخافون الموت، دخلوا معسكرات الإنجليز آلاف المرات، خربوا ودمروا، وزعوا المنشورات على مكاتب القادة، وضعوها في أدراج مكاتبهم، لهم جرأة النمر وشراسته، ذلك لأنهم صنعوا الموت ولم يخافوه، لم أدخل معهم حتى الآن، ولكن لي دورا هاما، إبلاغ أوامر التحرك إلى المجموعات، نقل رزم الكومي (المنشورات)، حمل سلال المفرقعات تحت غطاء حبات المانجو أو التمر، لم أرتكب خطأ واحدا خلال الثلاث سنوات التي عملت فيها معهم، ولكن ملعون الكذاب والجبان، كانت بي رغبة الدخول في دخان القنابل، والاشتراك في العمليات.

قال برهان:

- قبضوا على مهران الضبع وهو يتسلل إلى مخازن الذخيرة، وأجبروه على الكلام.

ووجم الرجال، نظروا إلى داوود الذي أشاح بوجهه في غضب وقال:

- لا يهم.

داوود، أمين المخزن ويعرف الكثير من أسـرارها، واعتراف مهران معناه النهاية بالنسبة لداوود.

لا يهم الرجل موته، ولكن يهمه كيف يموت، لعبـة الموت لا يجيدها سوى قلة من الرجال، أمـا لعبـة الكـلام والثرثرة فيجيدها الكثيرون، وداوود من القلة.

قررت الجماعة نسف المخـازن ومكتـب ضـابط المخابرات، تعدلت الخطة قليلاً، من سـرقة المخـازن إلـى النسف، هذا أفضل، الخطة تقتضي وجـود انتحـاري يقـوم بعملية النسف، أصررت على القيام بهذا الدور.

وزغرد القمر في السماء، وتمايلت أشجار المـانجو في نشوة، وحملت صندوق المتفجرات، وبدأنا الخطو..

زحفنا، الجو يميل إلى البرودة، ورياح خفيفة تـأتي من ناحية البحيرة سور المعسكر من السلك الشائك، كشافات الحراسة، صوت قارب بخاري يقـوم بمنـاورة، الكشـافات الضوئية تلمع في السماء في حركات خاطفة وأشـباح جنـد تبدو في حركة منتظمة.

لابد من الانتظار، اختفاء القمر ساعة الصفر، اقترب برهان وهمس في أذني:

- شديد يا رجل؟

ابتسمت ولم أجب، كنت في حالة تيقظ تـام، أطبـق على فمي حتى لا أنطق بكلمة أو يخرج تنفسـي مسـموعا، أخشي أن يعرف الرجال أني خائف والحقيقة، كنت أحيانًـا، وللحظات قصيرة، أفقد الشعور تمامـا ولا أحـس إلا بثقـل رأسي أو نارا تصعد منها، ويطفو الخوف كسـحابة ويمـر، وسرعان ما تغمرني السعادة.

وفجأة، انبعث ضوء قوي من كشاف في برج، أحال المكان إلى وضح النهار، اختبأنا بسرعة خلف جذوع الشجر، وأحسست أن ضوء الكشاف يكاد يخترق جذع الشجرة التـي أقف خلفها، وأن اللهيب، لهيب الضـوء، يلسـعني، مـرت لحظات، ليستمر الكشاف دورة، دار الكشاف في بطء، دورة كاملة ليعود مرة أخرى إلى التلصص نحونا في تعمد محموم، ثم راح كما جاء، أعطى برهان إشارة التحرك، المجموعـة الأولي نحو الجنوب، بعد قليل، تحركت المجموعة الثانيـة، مندفعة، نحو السور لتمهد طريقًا لنا، تسللنا، بسرعة، خلفهم. كانت الأوامر الصادرة لي، أن أخترق السور فـي المنطقـة التي تمهدها المجموعة، وجريت، كان علي أن أصـل إلـى

مخزن الذخيرة وأضع المتفجرات في مكان وصف لي جيدا، ثم أعود، أو لا أعود، هذه مشـكلتي بعـد ذلـك، وهنـاك مجموعتان ستعملان على تغطية تسللي وانسحابي.

أمرني برهان بالهدوء، مرت مجموعة من الجنود في داورية حراسة، كانوا يضحكون، وودت لو قذفتهم بقنبلـة، نهرني برهان بمجرد أن أحس بحركة يدي.

مكثنا في مكمننا حتى اختفت داورية الحراسة، وبـدأ الزحف من جديد نحو مخزن الذخيرة، كان هناك شـارع أو ممر يقطع ما بين منطقة مزروعة بالأسلاك الشائكة ومبنـى المخزن، تقدم برهان ودارت معركة صـامتة مـع جنـدي، لمحت خنجره يهوي ويرتفع عدة مرات، ثم أشار إلى برأسه، عبرت الممر بسرعة، تصورت الجندي وهو يموت، شعرت بالكآبة والحزن واستولى على شعور بالخوف من برهان.

كان على أن أصل إلى المنحني وأدور معـه حتـى الفتحة المحددة لكي أضع المتفجرات، لمحت جنديا يقف فـي حركة مشدودة تصلبت عضلات ذراعي، ارتفع صاروخ من النار خارجا في اندفاع من أذنـي، كـان يجـب أن يرانـي الجندي، قفز برهان وجذبه إلى الأرض، خُيل إلى أن الجندي

ظل يحملق في وجهي قبل أن يسقط، تخطيت جثته واندفعت بأقصى سرعة بجوار الحائط، أتحسس الجدران بيدي، كانت الدنيا ظلاما دامسا وفجأة، اخترقت يدي فجوة فـي الجـدار، كانت المنطقة المتفق عليها، وضعت سلة المتفجرات بحـذر شديد واستدرت بنفس السرعة، اصطدمت بجنـدي، آلمتنـي الصدمة، لم أفكر، كرهته، دفعته نحو الأرض في وحشـية، وانهلت عليه ضربا بمؤخرة مدفعه، تطـايرت قطـع اللحـم الحار ولامست وجهي، انبثق شلال من الدم السـاخن مـن رأسه، كسى الدم وجهي وغطى على عيني، سمعت صـوت الرصاص في الجانب الآخر.

اقتحمت باب الجب، رأيـت جـبلاً مـن الأفـاعي، وضعت هديتي أمام العفريت، نظر إلي في غضب، أطلقـت ساقي للريح وهربت، ولكن صادفني الحوت فـي طريقـي، اقترب مني وفي فمه قطعة من ذراع برهان صرخت بأعلى صوتي:

- أمي.

الرجل الطفل يصيح، لم أسمع ردا، قطـع القمـاش تناثرت حولي، منقوشة برسومات الفن الدموي الساخر وقطع

اللحم، تحول ما حولي إلى أشلاء، وتحولت الرجال إلى قطع من حجارة مكسورة ترقد في لا مبالاة ولا تسمع الأوامر.

تحرك برهان بسرعة، ترك ذراعه للحوت، وزحف على الرمال وشدني، لم أتحرك، راودتني فكرة الجنة، النعيم الأبدي وسط الحور، بنات كما القمـر الشـفاف، وتصـريح دخول، فرصة لن تعوض وجلست أنتظر المـوت، برهـان رجل دنيوي، أمرني أن أتحرك، وزحفت معه، لا بأس سوف أعود وأحصل على التصريح، الأرض تتمدد من تحتي وأنـا لا أتحرك، تشبثت بالأرض لأتحقق من صحة هـذا الأمـر، انفتح سيل من النيران، تراجعت عـن فكرتـي، وأسـرعت بالزحف من جديد، خطوات واصل إلى، إلى أين؟ لا أدري، الرغبة في الحياة تجرني إلى الأمام، لا أريـد المـوت الآن. نعم لا أريده الآن، فقط الآن، وليكن بعد ذلك، قف.

وقفت..

***

(٨)

حبيبتي فاطمة:

الجرح يذكرني ببلادي، أسمر غائر فـي الـذراع، يتلوى فوق الساعد، وفي نهايته يغضب، يضم شفتيه، وتحوم حوله التجاعيد.

نعم؟ الإنجليز؟ حقًا سيخرجون الشهر القـادم، نعـم، سيتركون القناة بعد عدة أسابيع، وبعدها لن يوجد حاجز بيني وبينكم، أعبر القناة دون تفتيش أو إرهاب، ولكن..

هل انتهت المشكلة؟

لا، لم تنته بعد، ما يزال أمامنا خط طويل علينـا أن نقطعه حتى بلادتنا في الوطن الحبيب، فلسطين.

مات من الشعب، عم برعـي، وآلاف الآلاف مـن أمثال عم برعي. قرى كاملة أحرقها الرجل اللندني بسكانها، انصهر الحديد مع لحم الرجال، صاح طالب في فناء مدرسة: الاستقلال، ووقع على الأرض مدرجا بدمه، سال الـدم مـن فصول المدارس، ملأ الدم فناء المدارس، فاض الدم من فناء المدارس، أغرق الدم شوارع المدينة، مـلأ الـدم شـوارع المدينة، فاض الدم من شوارع المدينـة، وقتهـا تلاقـى دم

المدائن مع دم القرى والنجوع، شبع الرجل وأحس بالمال، وها هو يخرج من مصر.

والذي حدث في مصر، يمكن أن يحدث في فلسطين، وليس علينا إلا الصبر والاستعداد لمثل هذا اليوم ، لقد كنت أساهم في تخريب، وتدمير، ونسف معسكرات القناة لأنها الوسيلة إلى تدمير معسكرات اليهود في بلادي، فلسطين.

حبيبتي فاطمة..

تسألينني متى أحضر إليكم؟ لا أدري، لا أنتظر سوى رؤية انسحاب الجنود، حتى أسعد بلحظة غالية قاتلت من أجلها طويلاً، وبعدها أحضر إليكم، وربما حضر معي برهان، من برهان؟ سأخبرك حينما نلتقي.

حبيبتي فاطمة..

نسيت أن أقول لك إنني أصبحت سائقًا ممتازا بفضل تدريب عم برعي، وبفضل تشجيع برهان، أيضا.. والأكثر من ذلك استطعت أن أوفر مبلغًا صغيرا من المال، ربما حاولت استغلاله في مشروع ما.. لأنني شديد الشوق لكي أعود إليك.

الغربة، كلمة جوفاء لمن لا يعيشها، عشتها أنا، رغم حنان أسرة عم برعي، حيث أقيم، فإنني أشعر بالغربة كلما فكرت في بيتنا، وفي ملاعب طفولتي، وفي مدرستي، وفي الأشياء الصغيرة، تلك الأشياء التي يتشبث بها الإنسان طوال حياته، قطع الحجر الصغيرة التي كنا نلعب بها، حفر الرمال الضحلة، ورقات ملونة، حمراء وصفراء، أقلام قصيرة مبتورة، دروب ملتوية في الطرقات، شتاء بارد وقطعة حلوى، عيد باسم وقروش فرحة في الأيدي الطفلة، أشياء يمكن للإنسان أن يخاصمها ويسالمها، ويحارب من أجلها صغيرا، وتشرق في ذاكرته كبيرا، تكرار ودوار، لفحة حر ورياح عاصفة تلعب بذرات هواء الخياشيم، تلك هي أحلامي.

أحس وكأنني في جب مظلم لا قرار له، ولا نهاية، يندفع لهيب من النيران عبر صدري، ويخرج من فمي، يحرق كلماتي تخرج الكلمات، كربونًا محروقًا، وأتقيأ ما في فمي من سعادة وحنان، ملعون القائم والقاعد، ملعون أنا، وأشعر أنني لا أستحق الحياة، أظل مشغول الفكر أقلب الأمور في عقل خرب، لعلى أهتدي إلى حل، والسؤال يلح

على تفكيري.. متي نعود؟ صياح يأتي من النفـق البشـري الذي صنعه المغتربون، متى نعود؟ متى العودة؟.. وكيف؟

يقول الرجل الضرير، والصوت يأتيني عبر متاهات الظلام الأبدي، قوة كبرى استغلت ضعفنا، وقسمت ديارنا على متشردي العالم، وهذه القوة ما زالت تـتحكم فـي المصـير البشري.

ساعتها خالفت الرجل الضرير، وقلـت: لا. نظـر الآخرون، وسألتني عيونهم، لم أجب، كنت صغيرا ولم أكـن أعرف الإجابة، واصل الرجل الضرير حديثه.. القوي، الذي يملك مصادر القوة، يحكم. وافقه الحاضرون بهز الـرؤوس، واصل الرجل الضرير الحديث.. باسم القوة يحكـم، وباسـم العدالة والحرية يحكم، باسم الإنسان يحكـم، ولـذلك فإنـه يساندهم، ليزداد قوة، باسم القوة يحكم، وتأتي الحرية والعدالة وفقًا لمعايير هذه القوة.

لحظات من الصمت المتردد تمر، تمضى ، ويسـأل الحاضرون:

.. ما العمل؟

ابتسم الضرير، وقال: يجب أن يفقد هذا القوي قوته.

قال السامعون: حقًا قلت.. ثم؟

قال الضرير الشيخ: الأهم مصادر قوته.

سأل السامعون: وما هي يا مولانا الشيخ؟

أجاب الشيخ الضرير: أنتم.

ووجم الحاضرون، السامعون، الطيبون، الملوثـون أبدا، وكانت تفوح منهم رائحة الزيت والنساء.. والكلام.

حبيبتي فاطمة..

بلادي، بلادي لك حبي وفؤادي، لك روحي، لك الله.

كيف الحال عندكم؟

لقد نسيت أن أسألك الأخبار، كيف حال أختي صباح؟ وكيف حال مولودها؟ لم أكن أظن أنها تنجب من هذا الوالـد العجوز، الذي تعدى عمر الآباء من سـنين!! الحـالم أبـدا ببيارات ضاعت كان يملكها، وأولاد له كان يحـبهم، والآن تفرغ للإنجاب!!

أنا، أيضا، سوف أفعل مثله، وليكن الابن يدا جديـدة في سبيل العودة، ساعدا يحمل السلاح في سبيل النصر، فـلا تثريب عليه، وعلى من ينجب الأطفال، ليظل الشعب مستعداً للعودة بجنود من أبنائه. زحف بشري: جحافل من الأطفـال

والبنادق تسد عين الظلام. قولي لأختي أن ترضع وليدها لبن المأساة، وأن تغذيه من عشب العـودة، وأن تلفـه بسـروال الكفاح، وأن تضخمه برائحة تراب قريته، لأنه من المهم ألا ينسى، والويل لنا كل الويل إذا فقد الوليد رائحة تراب بلادته.

كتب التاريخ تقول: أرضعوهم لبن الغضب والثورة، احفروا في عقولهم وعلى ذوائب جفونهم لحن العودة، لأنهـم جند العودة وجيش الخلاص.

فاطمة الحبيبة...

أريد أن أقول كلاما حلوا، مثل ما يقـال فـي هـذه المناسبات، كلاما يقطر حبا، ويعبر عما يكنه لك قلبـي مـن عاطفة، ولكن، لا هناء لفاقد الوطن في الحب، فلا تغضـبي، اعذريني، وسوف أعوضك عن هـذا كلـه حينمـا نعـود، وساعتها ستصرخين طالبة أن أكـف، ولكنـي لـن أسـمع صراخك، وأظل أجري خلفك وسط تلال الأوراق الخضراء لبيارات البرتقال أبثك لواعج فـؤادي، وأدور معـك حـول أشجار الزيتون: وأغني لك لحن البلاد السعيدة، وتفرين مني حينما تسمعين نداء (وليد) عائدا من مدرسته في يافا المقدسة،

ويرمي الولد الشقي حقيبة كتبه على أرض الحديقة ويسـرع في لهفة إلى أحضانك، مناديا:

- ماما، لقد عدت من المدرسة.

- وماذا علموك يا وليد؟

وينظر الولد إلى عينيك، في شفافية، ويقـول بلغـة الطفل:

- ف. ل. س. ط – فلسطين.

وتصرخ الفرحة في عينيك، ويزغرد السـرور فـي صدرك، وتطفو الكبرياء حول شفتيك، وتهللين، ها، لقد تعلم الولد نشيدا رائعا.

وبعدها نجلس فوق العشب الأخضر وتحـت ظـلال الزيتونة نتذكر أياما مضت، وفي المساء يلتئم الشمل، ونجلس جميعا في منتدى القرية، لا، أحلام، لا أريد أن أعود بعقليـة ما قبل الغربة، أريد أن أعود بعقلية ما بعد العودة، حسنًا يـا صديقي، إنني موافق على شراء ماكينـات الـري الجديـدة وكذلك ماكينات الإنارة، أما بالنسبة لبرنامج الاحتفـال بعيـد العودة الرابع فإنه يحتاج إلى بعض التغيير: مـاذا تقـولين؟

يجب أن يذهب وليد إلى قصر الطفل، نعـم، لقـد تغيـرت الأمور كثيرا.

فاطمة..

لا ليس حلما في ليلة صيف، لو أن حدا يأتيني بذلك الرجل الشيخ الضرير، أناقشه؟

لك تحياتي، وسلامي إلى الأهل، كـل الأهـل فـي مخيمات العائدين.

(بلال)

***

(٩)

عدت إلى غزة:

وكان في قلبي شوق عارم لرؤية فاطمة.

مضت سنوات على فراقها ولم يكن بيننا سوي رسائل قليلة نتبادلها، أحيانًا عن طريق بعض القادمين من غزة أو المسافرين إليها، وخاصة هؤلاء الذين تعرفت عليهم عن طريق برهان، والذين كانوا يسافرون إلى الحدود مع العدو للقيام ببعض الأعمال المشابهة لأعمالنا في القناة.

ولكن الأمر الذي كنت متلهفًا إلى فعله أكثر من أي شيء آخر، أكثر من لهفتي لرؤية فاطمة أو أختي صباح ووليدها، هو الصعود فوق التلال والنظر إلى بلادي من بعيد، وتنسم الهواء القادم من هناك.

كانت سيارة النقل، السيارة الضخمة التي حملتني إلى هنا، تنهب الأرض بسرعة هائلة يقودها الأسطى جلال الذي أصر على أن يوصلني بنفسه، والطريق يذكرني بعم برعي وقفشاته ومرحه وشجاعته، تهتز السيارة من وعورة الطريق، أشعر بتوتر يشلني لحظة وتدفق الذكريات عبر أخاديد عقلي: موال الصبر يغنيه الرجل المناضل، الحركة

والحياة التي كان يبعثها، صدمة العواطف المبكرة وحرماني من التعليم في الأزهر بكلمة قالها، تدور دوامة من الصـور، يحتل الشهيد مقدمتها.. وأطلب الرحمة له.

توقفت السيارة أمام نقطـة الحـدود، خـرج رجـل الشرطة يسألنا الأوراق المختومة، أبرزنا له، فـي ضـيق، مجموعة من الأوراق والبطاقات، نظر الشرطي إلى بطاقتي، ثم نظر إلى وقال:

- أين التصريح؟

وقفزت الكلمة أمـام عينـي، وأصـابتني بـدوار، تصريح؟ لماذا؟ لأدخل بلادي، أو أقل بقية بلادي؟

لا لم يصل الأمر إلى هذا الحد، الشـرطي عربـي أسمر ويقف على أرض عربية، أحيانًا أصاب بالغباء، هكـذا كان يقول لي برهان، والآن ها أنا في لحظة الغبـاء، قطـع هياجي الداخلي صوت الأسطي جلال وهو يصيح:

- ها هو التصريح.

وأخرج بضعة أوراق من جيبه وأبرزها للشرطي.

حملق الشرطي في الأوراق بضع لحظات، ثم كتـب عليها كلمة أو كلمتين وناولها للأسطي جـلال وأشـار لنـا

بالمسير، كان الشرطي بارد الإشارة والكلمات، نفوراً متأففاً، أثار في نفسي العديد من الأحاسيس المتباينة، منها الشـفقة، نظرت إلى الأسطى جلال، أخذ يغني عن الوابور المسـافر إلى بلد المحبوب، جذب يد السرعة زمجـرت العربـة فـي غضب، أعاده إلى مكانه وهو يواصل الغناء انسابت السيارة في سرعة منتظمة، لم أجد بدا من الحملقة وفي اللاشيء.

ولم تمض مسافة كبيرة حتى استوقفنا شرطي آخـر خرج من كشك خشبي كئيب المنظر، فحص الأوراق وهـو يردد بعض العبارات، كان يبدو لي، من خلال النظـر إلـى وجهه، أنه حارس الجنة وهو سعيد بتلـك المهمـة، دققـت النظر، كان فلسطينيا مثلي صحت فيه:

- من أين يا أخي؟

رفع رأسه، ونظر، ثم قال في بلاده:

- من أم السلول، وأنت؟

قفزت من كابينة السيارة، أخذته، هذا السلولي، بـين أحضاني أشبعه لثما وأحضانا، صائحا بكل قوتي:

- يا أهلاً يا ابن بلادي، يا مرحب يا ابن قريتي.

كان مشهدا رائعاً أثر في نفسي إلى أبعد الحدود، وأنا أعانق رجلاً من قريتي لم أر أحدا منها زمنًا طويلاً.

وانسابت الذكريات بيننا ساعة من الزمن، الأيام التي مضت الأصدقاء والمعارف والأهل، قصصت مـا أعرفـه، وحكى لي ما يعرفه، أحيانًا تكون الأخبار والحكايات مفرحة وفقًا لما يهواه الإنسان، وأحيانًا تكون محزنة غير ما يهـواه الإنسان، والمغترب لا يملك إلا الذكريات حينما يقابل مغتربا آخر، علمت منه أن معظم أصدقاء القرية حضروا إلى غـزة ويعملون بها، والباقون رحلوا إلى بلدان أخرى يعملـون أو يدرسون، وسعدت به شرطيا يعمل تحت علم بلادي.

واصلنا السير، بعد أن أخذت موعدا مع يونس للقـاء في غزة، أصبحنا الآن نسير في بقية بلادي أو ما يسـمونه القطاع.

رائحة بلادي، تراب بلادي، نسيم بلادي، ذرات هـواء بلادي الخضرة والجدب، الرمل والأرض السـوداء، قنـوات الماء، حفيف أوراق الشجر، تحيات الرجال فـي الطرقـات، نهنهة طفل يبكي، فتيات المدارس، والأشياء الأخرى، همس الذكريات، تقابل حرف الهجاء مع مثيله في نفـس اللهجـة،

رائع مفرح، يفيض الشعور، يتدفق، أصرخ من البهجة، هذه بلادي، أو كيف يكون الوطن.

وجدت أختي صباح وزوجها في انتظاري، وفي قلق لتأخري عن الموعد الذي سبق وأن حددته لوصولي.

لم يكن هناك بد من قضاء بعـض الوقـت معهـم، يسألونني عن مصر وأهلها، وأخبارها، ومساجدها، وجنودها وموعد الخلاص، وأنا أجيب، وعيني على الطريـق متلهفًـا لرؤية فاطمة.

وجاء الطعام، وأصرت أختي على أن آكل أمامها، لم تكن بي رغبة في الطعام، كنت متلهفًا لأمر آخـر، تعللـت بأسباب كثيرة، أخذت أوزع عليهم ما حملته لهم من هـدايا، وفرغت من هذا كله ولم تحضر فاطمة.

وأخيرا، فقدت ما حاولت أن أتصـنعه مـن صـبر وكياسة، ونظرت إلى أختي في ارتباك، وقلت:

- أين فاطمة؟

مرت لحظات، حاولـت أن أداري خجـلاً عربيـا ممسوخ المعنى، قالت أختي لزوجها:

- هل حجزت مكان لمبيت بلال؟

أجاب الرجل، في نغمة مكتومة:

- نعم

هززت يدي في وجه أختي، وقلت، بعد عناء:

- أين فاطمة؟

أشاحت بوجهها بعيدا، وقالت لزوجها:

- أين يا رجل؟

أخذت وجهها بين يدي، نظرت في عينها، وقلت في إصرار:

- إنني أسألك أين فاطمة؟

أثلج الوجه في يدي، عاتبني رمش العين الواجف، واصلت سؤالي:

- لماذا لم تحضر وهي تعلم بموعد وصولي؟

اهتزت في ألم، اندفعت قطرات الدمع من العينين الحمراوين، أحسست بألم حاد في أسفل معدتي، تركتها، أخذت أعبث في حقيبتي، صاح زوج أختي ردا على سؤالها القديم، وقال:

- فندق المحطة، قلت لك فندق المحطة.

وتطلعت إليه، كرهته، ذلك الرجل العجـوز، لئـيم، تزوج أختي ليأكل وليمارس الأشـياء الملعونـة معهـا، ولا شيء.. ويكون سماء النجم الساطع، ويكون القمـر البـدر، الناهي في ملكوت العشاء، ذلك يوم النحس، ويكون..

- لمن الفندق؟

أجاب الرجل في هدوء أحمق:

- لك يا ولدي.

- لا، لن أقيم في فندق وأنا في بلادي.

الرفض رؤية، قالوا في الأمثال، الغربة نار تحـرق كل الكلمات، نظرت إلى أختي، تبكي، لا أدري لماذا تبكـي دائما، والعالم يتغير، يثور، تغلي في أعينه جمرات الرفض، وهي مازالت تبكي من يوم النكبة، قلت في صوت حاد:

- سألتك عن فاطمة ولم تجيبي؟

زادت قطرات الدمع، ولم تقل شيئًا، تكومـت علـى نفسها في ألم. كان الرجل العجوز يعبث بعلبة الدخان، نظرت إليه وقلت:

- قل شيئًا.

رفع رأسه في بطء، وقال:

- فاطمة يا ولدي..

سحبت الكلمات من فوق اللسان..

- قل، ماذا بها؟

- لا شيء يا بني، لا تقلق..

سحابة من الغباء تراكمت فـوق الـذهن المكـدود، وزكام الثورة يمنعني من التنفس، تحركت يـدي لتضـرب الهواء..

همست أختي، وهي مازالت تبكي:

- أنت خائف من أجلها؟ ولكنها لم تفعل مثلك؟

ضايقني الهمس المسموع، صحت:

- أخبروني بالله مهما كان الأمر.

اندفع سيل الأسرار، وتناول الكاهن قربـان الـرب، وقالت أختي:

- حسنًا، لقد تزوجت أمس.

قالت أختي ذلك وجلست تتنفس بصعوبة، نظرت إلى زوجها، ألقى الرجل بكل ما عنده، وقال:

- تزوجت من رجل ثري، من أهل غزة، له تجـارة ومال ليس، على الأقل، لاجئًا.

قفز الرخ وطار، دار حول العالم مرتين، وفوق جبل النرجس الأملس حيث الأبراج الخمس، وقف، شعر بالرغبة في النوم.. فنام، نام عاما، وعاما، ومضت الأعـوام، وفـي ذات يوم تغير وجه الكون، وانسحق جبل النرجس من تحت أقدام الرخ النائم، كان على الرخ، حينما يفيق من النـوم، أن يجد لنفسه ملجأ، و..

لاجئ..

وهل أردنا أن نكون؟

فاطمة مثل القط، القط جميل، تموء من فقر المرقـد، تبحث عن الليونة الدافئة، تجلس فوق وسادة الحرير، الوسادة الحمراء الموضوعة، بعناية، في ركن من فراش السيد، لكي يتناولها وقت الرغبة، حينما يعبث به شوق المضاجعة.

فاطمة لاجئة مثلي، مثل الآلاف، الملايين التعسـاء، أصحاب الحق المفقود، لا بيت لهم، خيامهم بليت مـن دمـع سكبوه..

يا قوم: إني أسألكم:

- لماذا نحن؟

ذلك مجرد سؤال أرفعه إليكم..

- لماذا نحن؟

صرخ أرنب في رعب، وقفز، ولكن التنين كان في انتظاره وقبض عليه أمسكه بين يديه، وأخذ يتسلى بالنظر إليه، دون أن يلتهمه، فقط ينظر إليه ويضحك، التنين هائل الحجم، كبير الأنياب حاد اللسان، فمن يقول له: لا؟ لا أحد، إلا إذا كان له نفس القوة، وكذلك نفس الأنياب. مسكين يا أرنب، جسمك ضئيل، رقيق، ولا أنياب لك، أسنانك رفيعة مثل حبات الحمص، وقلبك يا عزيزي الأرنب جبان، مذعور دائما، فكيف تواجه قلب التنين الأعظم الذي لا يعرف الرحمة، ولا الخوف؟

اقترب الثعلب من زعيمه.. الثعلب جائع، ويقولون إنه يميل إلى تذوق لحم الأرانب، قال الثعلب:

- مولاي الملك، إن قلب الأرنب، إذا أكلتموه ربما، ربما ينقل العدوى إلى قلب جلالتكم، ولهذا أرجوكم عدم أكله لأنه قلب حيوان جبان.

وخاف التنين على قلبه، وقذف الأرنب من فمه.

وما إن فعل الملك ذلك، حتى أمسك الثعلب بالأرنب المذعور والتهمه في نهم، وتساقطت دماء الضحية حول فمه فراح يلعقها في تلذذ، وهو يدعو لملكه بالرفعة والمجد.

والأرانب كثيرة، وكلها مذعورة، هاربة، تأكل أخيرا في خوف، وتتناسل أخيرا في خوف أيضا، ويبدو أن كثـرة نسلها يرجع إلى هذا الخوف. بينما التنين واحد، فقط واحـد، له بضعة أطفال قليلو العدد، هائلو الحجم، يأكلون في شراهة وبطء، يدوسون دون ألم، ولا يتلذذون إلا بطعام يأتي لهم من أماكن بعيدة.

والأرانب لها العديد من الأعداء، منها التنين وأولاده، القطط، والثعالب، الكلاب والذئاب، وكذلك النسور، والكثيـر من أتباع التنين.

لو أن الأرانب تجمعوا، وصنعوا حائطًا من أجسامهم ووضعوا المدافع فوقها، ثم نظروا إلى التنين في ثقـة ودون خوف، لربما أمكنهم تهديد التنين وحاشيته، ويصـبح طعـم لحومهم مرا، وبعدها يأكلون في هدوء ويتناسلون في هدوء، وتقل الأعداد وتكبر العقول والأجساد.

المساء في غزة، بارد ثقيل، أمواج البحر تعصف في رتابة أبدية، وأصوات مشاجرة تعلو فجأة، ومنظـر الخيـام يجعلني أرتعد. فكرت لحظة أن أمزقها، أحرقها تذكرت طفلاً نائما، تناسيت الفكرة، اصطدم بصري ببنايات بيضاء، حاول الأهل تشييدها بدلاً من خيامهم، هي أقرب إلى العشش منهـا إلى المنازل، ولكنها تذكرنا بالبيوت في قرى الجبل.

قطعان الماعز تتسكع في الحواري، تحـاول مضـغ النفايات. ورجال عجائز يجلسون في صمت، ونساء مسنات يتكومن في جماعات إحداهن تنبشن قبرا في التـراب، قبـر نملة ماتت من الجوع، وصوت فتاة تنادي على أخيها، يقابله صوت الأم ناهرا في غضب.

وجاء الليل، رحت أجوب الدروب، أنظر إلـى كـل شيء ولا أعي شيئًا، لم أفكر في حادث زواج فاطمة، تقبلتـه كأنه لا يخصني، كان بداخلي موجات من الألم واليأس، تعلو أحيانًا وأشعر أنني أود أن أتقيأ، وتهبط أحيانًا، فأشعر بـدوار يجرني إلى أسفل إلى عالم بعيد.

وظللت عدة أيام نهبا لأفكار سوداء ساذجة، والأمواج تنحسر رويدا رويدا، حتى أفقت قليلاً وبدأت أدرك ما حـدث

وأتقبله جاس زوج أختي بجواري، كنت ممسكًا بكوب من الشاي، حدثني عن المنزل الذي اكتراه اليوم من أجلي في خان يونس، ثلاث حجرات فسيحة، ثم شرفة واسعة تطل على شجرة زيتون، في دار جميلة المنظر، عليلة الهواء، ظليلة أنيسة في نهاية شارع (القسام).

زوج أختي شغل نفسه بمستقبلي، وضعني تحت وصايته، تكلم عن المستقبل والأسرة، المال لعنة ولكنه ضروري يا بني، القرش في الزمن الأغبر هذا حصان الحاجة وسيد البيت، كن عاقلاً يا ولدي، كنت في الماضي.. وانهمرت الذكريات..

اختلطت كلمات الرجل مع أفكاري المهوشة حول المستقبل، أخرج العجوز علبة الدخان، راح يحشو لفافة في هدوء واستمتاع، جرى الورق الرقيق على حافة شفته السفلى، أغلق العلبة ووضع اللفافة في جانب من فمه، قال:

- تصور سيارة حديثة تمرق في شوارع القطاع..

أشعل اللفافة، امتص الرحيق الساحر، ابتلعه، غامت سحابة من الدمع على عينيه، أكل الدخان، وواصل الحديث:

- تقودها..

غالب سعالاً، وقال:

- وحينما تعود إلى دارك في المسـاء تكـون قـد حصلت على ما لا يقل عن نصف الجنيه، وربما أكثر.

خرجت أختي عن مألوف طبعها، قالت في حماس:

- بل أكثر أخيرا، زوج بدرية يحصل علـى أجـر يقارب من الجنيه، وأحيانًا يعطونه جنيها ونصف.

امتص الرجل اعتراض زوجته مع دخـان اللفافـة المشتعلة، وقال:

- جائز، ولكن فيما بعد، فيما بعد، الصبر.

ولكن أختي لم تصبر، اندفعت في حرارة، وقالت:

- لقد تعلم أخي في مصر، وكان يقود سيارة كبيـرة تحمل الجبل بمهارة.

ابتسمت أنا في سعادة، وصف أختي أشاع في نفسي نوعا من الخيلاء، قال الرجل في تبرم:

- لا يهم، صغيرة كبيرة، يقبل العمل أولاً ثم يثبـت شطارته، حتى يطالب بأجر أفضل.

الرجل صاحب ضياع وسيارات، حينما ينوي إلحاق عامل بمزرعته يفحصه جيدا، يناقشه في أمور مهنتـه فـي

خبث، يحطم كبرياء مهارته، ثم يساومه على الأجـر، كـان زوج أختي يبدو لي هكذا، قلت بسرعة:

- شكرا يا عمي، ولكن لن أعمل سائقًا.

ونشبت مشادة عنيفة، صاح الرجل في حنـق، ردت عليه أختي في تبرم واتهمته باستغلالي والاتفاق على أجـر قليل، وأقسم الرجل بكل المقدسات، وأنه يعرف أكثـر ممـا نعرف نحن، فقد كان لديه سيارة في يافا ينقل عليها البضائع من القدس إلى يافا وكان، وكان.. الرجل يتلو ذكرياته مثـل ترانيم المعابد في العصر الوثني.

وطال الحديث زمنًا، كنت مسـرورا فـي البدايـة، أتحمس لحديث أختي، أهز رأسي موافقًا على أقوالهـا، نعـم هذا صحيح الحق في جانبها، انصر أخاك ظالما أو مظلوما، كلمات الشيخ العجوز تخرج محطمة، يسعل بكثرة، يبـدو أن الزوج تراجع عن مجده القديم، ولكن سرعان ما ضقت بمـا يقولانه، مللت، أردت تغيير الموضوع قلت:

- والزوجة، لم تذكري شيئًا عنها حتى الآن؟

وجم العجوز وسكت، أضفت قائلاً:

- أم إن بحثك لم ينجح، ولم تعثري علـى واحـدة ترغب في معاشرتي؟

نظرت صباح نحوي في استنكار، قالت:

- لم أنجح؟! كيف وقد قضيت اليوم كله في المعاينة والاختيار؟

لابد للشيخ العجوز من المشاركة في الحديث، قال:

- وبالطبع لم تختاري واحدة!

كان الزوج عند أختي قد تهاوى من سـماء الرجـل الفحل وانحط في قاع الشيخوخة، فقالت له في شراسة:

- اسكت أنت.

وسكت العجوز، انسحب إلى الوراء وجلس متكومـا على نفسه، صدمتني شراسة أختي وأحزنني تصرف الرجل، العالم مسحوق ناعم، يتطاير مع ريح الألم، قالت أختي:

- الآن أمامك واحدة من ثلاث: قسمة، سمراء جميلة تجيد جميع أعمال الخياطة والتطريز، والثانية: هدي رقيقـة بيضاء، مازالت تذهب إلى المدرسة، وهذه أعجبتني.

- والثالثة؟

- مريم بنت المصري، جميلـة رشـيقة، ومـاهرة، ولكنها..

- ولكنها.. ماذا؟

- لا تريد أن تتزوج الآن..

لا تريد الآن، ربما بعد يوم أو عـام أو قـرن مـن الزمان، ربما لا تريد أبدا، عادت أختي تقول:

- رغم أن أمها، وهي صديقتي، قد وافقت ورحبـت بك، و.. هناك أخريات ، لا يعدم الذكر وجود أنثي، راحـت أختي تعدد في وصف الفتيات، حليمة بنـت بـائع البطـيخ، سعيدة بنت منير أبو شهبة موظف البلدية، عائشـة مدرسـة أطفال في مدارس الوكالة حميدة وفتحية، بثينـة وخديجـة، أخريات كثيرات، والرجل العجوز يجلس حزينًا، صامتًا ينظر في الأفق، بدا كأنه أحد شيوخ العصر العربي فـي الـزمن الغابر، قسم الأسلاب والغنائم بالعدل، عشـر نسـاء لمعـاذ ومثلها لجبل، ونصف العدد، لكل من جنود الشيخ لقد نسـيت الشاعر الفارس، حقًا لقد نسيناه، ليأخذ الشاعر الفارس بنـت الملك.

أحضروا الشواء والقوارير، يدور العبيد حول السادة، ترقص الأسيرات في موكب النصر، اهتفوا معي يحيا القائـد البطل، وأنت يا شاعر: هل من جديد في الخمر أو النصر؟..

تذكرني أختي بسوق العبيد، ودلال يعـدد محاسـن جارية، ملفوفة القد، رشيقة رقيقة، خمريـة اللـون، رفيقـة النجوم في الليل، أنيسة الجليس والضـيف، تجيـد العـزف والغناء والرقص، تحفظ الأشعار ومأثور الكلمات والأقـوال، وهذه بألف ومائة دينار.

وأخري سمينة بيضاء، جاءت من بلاد العجم تجيـد الدلال، تزين الدار، تصدح كالبلابل في فجر النهار، تصـنع المكتوف والملفوف من أطايب الطعام، تسر النظـر وتبهـر البصر، وهذه لا تساوي سوي ألفي دينار.

هربت من الدلال، خرجت إلى شوارع المدينة، الناس في ملابس ملونة، والمقاهي مملـوءة بالجالسـين، المتـاجر تغص وتعمر بالبضائع والمشترين، سيارات الأجرة تتابع في سرعة، راديو يصرخ بشكوى من حبيب جاحد، هجر الفـؤاد الذي اكتوي بنار هواه. القوم في جدال عنيف حول المقطـع الأخير من الأغنية، وطفلة صـغيرة جلسـت علـى حافـة

الرصيف تبكي، وشجار هب فجأة بين اثنين مـن العمـال، تجمهر الناس حولهما بسرعة، يندفعون ليكونوا دائرة، تتشابك الدائرة، يعلو صوت الكل على صوت الكل، توقفت السيارات واندفع الناس منها إلى قلب الدائرة، ذابوا فيها، اتسعت الدائرة وملأت الشوارع، واصلت السير في طريقي.

قابلت وجها في الزحام، كأنه وجه فاطمـة، تسـرب الألم إلى قلبي، شعرت بدوار فـي رأسـي، والرغبـة فـي الصياح، ولكن ماذا يجدي الصـياح فـي شـوارع المدينـة اللاهية؟

لا شيء، يجب أن تسير، وأن تظل سائرا هكذا إلـى الأبد، مثل موج البجع، يعلو ويهبط، هكذا دائمـا، والشـمس تشرق كل يوم، كل يوم سواء كنت سعيدا أو حزينًـا، فهـي تشرق دوما ولا يهمها شعورك أنـت، ولا شـعور النـاس جميعا.

والمقهى مزدحم، ودخـان النرجيلـة يمـلأ الجـو، وصراخ حول حلقات لاعبي الورق يرتفع في هوس، بينمـا وقف يونس يرحب بي في ود، وقدمني إلى جماعته وعرفني بهم، ثم ساد الجو صمت ثقيل بعد ذلك.

خرجت كلمة ترحيب قصيرة مـن أحـدهم لتجـرح الصمت لحظة وبعدها يعود غطاء الصمت يغطي المكان.

شعرت بنوع من الحرج لهذا الصمت الذي وقع حين التقيت بهم، جلسوا يحملقون في صمت، سألت سؤالاً عـابرا عن أحوال التعليم، أجابني أحدهم في كلمة واحدة ثم عاد إلى سمته ابتسمت في داخلي، جبناء يخشون الضـيف الغريـب، يخشون على أرزاقهم، هذا السمين الأبيض ناظر المدرسـة وحوله مدرسو مدرسته، لابد أنه يقول لهم كل يوم، دعونـا نأكل (عيشًا) ونطعم الصغار في البيت، لسانك حصانك، ضع قيدا حوله، ووافقه الآخرون بالطبع، وهذا هو يونس شرطي الحدود، يجلس حوله مجموعة من رجال الشرطة يعملون في أماكن مختلفة، وهم بالطبع رجال السلطة، والحديث عنـدهم بحساب، ولا يتعدى أمور الأسرة والأولاد، وأحيانًا في ليلـة الجمعة، بعض ليالي الجمعة، يدور حول النساء، مرت فتـرة ما، قبل أن يسألني أحدهم في فتور:

- كنت تعمل في القاعدة؟

قلت في حماس للحديث:

- نعم.

قال آخر في سخرية:

- معهم؟!

ابتسمت في هدوء، وقلت:

- لا، ضدهم.

قال ثالث، في سخرية أشد:

- كيف؟!

شعرت بسعادة، يمكن الألسن أن تسـتعمل، انفلـت عيار الحرص، وقع الشاطر في شباك فضوله، وهـذا هـو الميدان، أخذت أقص عليهم أعمال جماعات الفدائيين، رويت لهم الكثير، وكانوا يعرفون بعضه، ودارت المناقشة، كيف تم هذا العمل، أجيب أنا في حماس، عمليات نسـف المخـازن كانت ضرورية، السلاح في يـد عـدوك، خـذه أو دمـره، المنشورات؟ نعم هامة جدا، كنا نضعها فـي أدراج مكاتـب القادة.. وفي حجرات النوم بجوار مخادع زوجاتهم، والكـل يستمع ويناقش، انصهر الكل وذاب التحفظ، ولم تعد كلمـات الناظر مجدية.

- هل خرج الإنجليز بسبب أعمالكم هذه؟

- بسببها وبسبب أشياء أخري، سلسلة من العوامل.

- يبدو أن هذه الأعمال تعجبك، وأنك تنوي القيام بها هنا..؟

توقفت، فكرت، التسرع لا يفيد، الكلمات الجوفـاء لا تصلح، قلت:

أليست لك رغبة في العودة؟

قال يونس، ويبدو أنه فهم شيئًا لم أتبينه:

- إنه من هنا، ولم تصب داره بسوء.

وارتبك الرجل، ارتعد قليلاً، قال:

- أنا لم أقصد، ولكني أود..

لم يدعه يونس يكمل قوله وأمره بالصمت.

ران الصمت على المكان مرة أخري، انبعـث مـن داخلي تحرك مارد، تمدد في كياني، واندفع إلى فمي، خلعت ثوب الرهبة والتردد: رحت بحماس أشرح الفكرة التي طالما راودتني، كانت حلما أستحلبه كل ليلة في متعة ولـذة، والآن من الممكن تنفيذه، وتحويله إلى حقيقة.

لم لا؟! ما كنا نفعله في السويس والإسماعيلية، فـي كبريت وفايد، في الشط والبحيرة، يمكن تحقيقه هنا في بئـر سبع ويافا، في الجليل ومستعمرات الحدود، ما كنا نقوله فـي

إذاعتنا السرية في معسكرات الإنجليز، وما كنا نطبعه من منشورات ونضعه في مكاتب الجنرالات وكباتن الجيش الإنجليزي، يمكن طبعه هنا ووضعه في حقائب المهاجرين إلى إسرائيل.

الإرادة البشرية الجادة تحرر الشعور تنتصر على أقوى الجيوش، يمكن للجيش أن يكون قويا ومسلحا ولكنه لا يملك إرادة البشر، أرض محتلة وعصابة مغتصبة وشعب يرغب في العودة لم لا نفعل مثل ما فعلته وتفعله كل الشعوب؟

قلت كل ما عندي وانصرفت وحدي أفكر، كان خيال فاطمة يطاردني، حاولت أن أتخلص منه، ولكنه كان يعود أشد إلحاحا، ويلتف حبل الحزن حول قلبي، وتظلم الدنيا حول عيني وأشعر بالضباب من حولي، وترتفع النار إلى رأسي، إنني أتقلب في أتون من نار لا ترحم. والمدفع في يدي، وطريق مسدود بنار مشتعلة، أشد الزناد إلي الخلف، أضرب بقوة، بكل قوة، ذلك طريق الخلاص والعودة، أضرب في الصدر تماما، ولتطلق رصاصتك في الكبد، اقتله كما قتل ولدك يوم الدم الأعظم، ارفع يدك بسكين أو قطعة حجر أو

بقبضة رمل، ارفع يدك في وجهه ولا تستسلم، أصرخ حتـى يسمع صراخك رجل حر، ولا تسكت أبدا.

تذكرت الآن حديث الشيخ الضرير، كان يقول كلامه في زمن اليأس والضباب، ولهذا كان الناس تقول عنه، أنـه رجل مخبول، لو أمكن أن يعود الشيخ إلي سابق عهده ليردد بين القوم الكلمات، ليقول ونسمع، لو عاد لقال النـاس كمـا كانوا يقولون في الزمن المسـحوق مجنـون هـذا الشـيخ المسكين، ولكن ربما قال أحدهم غير ذلك، فـالزمن تغيـر وتغيرت الناس، ربما!

الشيخ يقول:

- لا تجعل حياتك مرفهة، ابتعد بقدر الإمكان عـن الحياة الحقيقية، انبذها حتى لا تتمسك بها، أو تتمسـك بـك، حتى تلفظها في يسر، لا تنم على فـراش مـريح، لا تأكـل طعاما طيبا..

نم علي حجر خشن حتى لا تغفو..

كل قليل الطعام حتى لا تشبع..

أجبت الشيخ بنعم، ولكنه صاح:

- لا، لا تكفي نعم، لابد كي تقول نعم أن تصنع نعم.

ضحك القوم ورحلوا إلي أحضان زوجاتهم ينظرون إلي أسفل بطونهم ويقولون: نعم.

ولاح لي طفيف برهان، ومن خلفه لاحتـه مشـاكل تحقيق فكرتي، الذخيرة والسلاح، المدربون والمتطوعـون، وأمور أخرى أكثر تعقيدا.

وأسرعت بالكتابة إليه، ها هي أفكارنا تنمو وتنضج، وها هي أيامنا تعود، رصاص الليل ونجوم السماء، حـلاوة نسـمة الصـباح لمقاتـل يعـود مـن معركـة أحضر يا برهان، أسرع بالله عليك.

الأسطى جلال يجلس في المقهى يدخن في شـراهة، قذفت إليه بمكتوبي إلى برهان، دسه في صدره، همست إليه بأهمية الرسالة، ضحك في نشوة.

في الصباح كان الأسطي جلال يحمل رسالتي إلـي برهان، وأمنيتي في الرد سريعا.

***

(١٠)

احضر فورا.

لم تزد كلمات الرسالة عن هـذه الجملـة، التوقيـع (يونس).

فكرت في كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث.

فكرت، أيضا، في كل المشكلات والصور التي يمكن أن تصادف (المجموعة)، ولكني لم أصل إلي نتيجة.

كنت أقود سيارة محملة بالبضائع في طريقـي إلـى رفح، لهجة الرسالة، تحمل أهمية خاصة، نفير سيارة قادمـة من الخلف، انحرفت إلى أقصى اليمين، حاذاني قائد السـيارة الأخرى سبني ومضى، يبدو أن الحوادث في الطريق قادمة، توجهت إلي يونس مباشرة.

- ما الأمر يا رجل؟!

كان سعيدا، تحرك دون هدف، قال وهو يشير إلـى بضعة صناديق من الخشب:

- انظر.

تطلعت حيث أشار، صناديق خشبية مغلقـة عليهـا علامات بالحبر الأحمر، قابل للكسر، افتح من هنا، شـركة الزجاج...

ثم مجموعة أرقام، فتحت الصندوق الأول، صرخت من الفرح:

- أسلحة؟!

ضحك يونس، وقال في سعادة:

- زجاجات الرصاص.

فتحت الصندوق الثاني، وجدت ذخيرة بكمية هائلة.

قال يونس، ردا علي سؤال الأخرس:

- وصلت اليوم مع الأسطى جلال، ومعهـا رسـالة هامة.

- مِن برهان؟

- بل برهان نفسه.

- برهان هنا في خان يونس؟

- نعم.

- أين؟

درت حول نفسي متلهفًا لرؤية برهان، ولكن يـونس أوقفني قائلاً:

- ذهب مع الأسطى جلال فـي بعـض الأمـور، وسيحضران هنا في العاشرة.

نظرت في ساعتي، ما يزال هناك مسافة طويلة مـن الزمن، تحسست الصناديق في فرح، الكنز الضـائع عـاد، وجدته، فرحة الإنسان في أن يجد ما يفعله بأحلامه، بنفسـه، كان الرجل الضرير، شيخنا المخبول في نظر الناس، يقـول إن أحلامه لا تخيب، لقد كشف عنه الغيب، وقـد رأي فـي منامه، خاتم سليمان ووضعه علي كفه، ومسح عليه، فخـرج له حارس الخاتم، بعد أن ذهب عنه الخوف، سأله أن يعطيه بندقية، ولكن المارد حزن حزنًا شديدا، حتى أنه بكي، لأنه لم يستطع الحصول على بندقية واحدة، وظل الشـيخ الضـرير بعدها، يحلم ببندقيته.

يومها سألت الشيخ:

- كيف يفشل المارد في الحصـول علـى بندقيـة واحدة..

وهو، كما تقول يستطيع أن يحيل التراب إلى ذهـب والذهب إلى تراب؟

ابتسم الشيخ، وقال:

- حينما تكبر ستعرف السبب بمفردك.

يومها، أيضاً، خرجت من منزل الشيخ خائفًـا وأنـا أردد:

- مخبول ورب الأرض، مخبول هذا الشيخ.

لكني، في قرارة نفسي، كنت أصدقه وأخاف منه.

أسرعت بالسيارة إلي رفح، ها هو السلاح يا شـيخ قريتنا، البنادق يا مخبول، جـاء المـارد يحمـل صـناديق الذخيرة، يبدو أنني عرفت الآن، لماذا فشل يومها المارد في الحصول علي بندقية.

حاولت إنهاء مهمتى بأسرع ما يمكن، صرخ صاحب السيارة في وجهي، قذفته بنظرات باردة، قلت فيما بيني وبين نفسي كلب ملعون، شبت مشاجرة بين عاملين علـى تفريـغ الشحنة، تدخل بينهما بعض القوم، علت الأصـوات بسـباب جارح، قال أحدهما كلمة عن الحكمة في أننا تائهون، وتحدث الآخر عن الإيمان، وقال الوسـطاء كلامـا عـن الرحمـة

والصداقة والإنسان، ضحكت وقذفت مفتاح السيارة في وجه السمين، صاحبها، هرعت إلي سيارة أجرة، عائدا إلي مكان اللقاء ببرهان.

كان جالسا في انتظاري، خيل إلي أنه كبـر قلـيلاً، علامات الحزن بادية على وجهـه، لـم أسـتطع أن أكـتم عواطفي، وطفرت الدموع من عيني وأنا أرى برهان أمامي ثانية، تعانقنا في حرارة، اهتزت أجسادنا فـي نشـوة، قلنـا كلمات كثيرة في وقت واحد، كنت أود أن أتشربه في دفعـة واحدة، قطع برهان استرسالي في الترحيب به، وقال:

- كم لديكم من الرجال؟

جلست، في جدية، أخذت أجيب، وكأن عمل الأيـام اتصل وعادت القناة مرة أخرى، صدقني يا رجل، السـعادة في أن يعيش الإنسان حياته بأن يفقدها.

- والتدريب؟
- جميعهم مروا بمراحل التدريب.
- مستعدون؟
- طبعا.

- لقد أحضرت لك ما استطعت، ولكن هذه الصناديق لا تكفي ويجب الحصول علي المزيد.

- وضمان وصوله دوما.

ضحك برهان وقال:

- التفاح الجيد يأتي من الناحية الأخرى، الأشـجار خلف الحدود.

كلمة التفاح من أقوالي، كنت أطلقها علـى الأسـلحة التي نسلبها من العدو، كان يطيب لي أن أطلق أسماء مثـل هذه على أعمالنا:

البندورة أو الطماطم على القنابل اليدويـة، عناقيـد العنب بدلاً من الألغام، هذا أفضل بالطبع، البذور بـدلاً مـن الجنود، وهكذا، وكانت هذه المسميات تساعدنا بـالطبع فـي الرسائل.

- نعم يا برهان، أشجار التفاح تحمل الكثيـر مـن الثمر.

- وعلينا قطفه قبل أن يتحول إلي أشجار جديدة.

جاء الطعام، يونس لا ينسى مثل هذه الأمور، يأخذها مأخذ الأمور الجادة، حاولت أن أشرح ما لدي، استمع برهان

في هدوء، علب السردين المستورد، مائعة، تقززت بعـض الشيء، نظرت إلي برهان، كان يضع في فمه لقمـة خبـز، ابتعلها مرة واحدة، قال:

- مثل ماء النهر: كل نقطة تختلف عن الأخريـات، رغم التشابه الظاهر، ولكن الأعماق..

- أفهم هذا جيدا، العدو هناك كـان متمركـزا فـي قاعدة، أفهم ذلك، بالإضافة إلي الأمور الأخرى.

- ولهذا يجب أن نغير..

- بالطبع هذا في الحسبان.

أخرج علبة سجائره، أعطاني واحدة، بـدأ يـدخن، سألني:

- هل لديكم خرائط؟

أجاب يونس، في حماس:

- لسنا في حاجة إلي خرائط، إننا نحفظ أرضنا شبرا شبرا، أشرت إلي برهان أن يصمت، قال برهان في غضب:

- لسنا في مغامرة، إنها بداية ثورة، لقد أقاموا العديد من المعسكرات الاستحكامات الدفاعية، أشياء أخرى عديـدة، علينا دراستها جيدا قبل كل شيء. بديهيات، كنت قد درستها

بالفعل، والأمر في حاجة إلي أنواع كثيـرة مـن الخـرائط والبيانات، حسنًا دعنا ندرس هذا كله معا.

عكفنا عدة أيام، وعلي مدار ساعات طويلة من الليل والنهار على دراسة كافة الخرائط والبيانات والمعلومات التي استطعنا الحصول عليها، وعلى أساسها تم وضع خطـة أول عملية.

- الليلة نبدأ أول عملية لنا.

هلل يونس، وصاح سلمان:

- حان الوقت إذًا.

أكمل برهان حديثه، وقال:

- أحتاج إلي عشرة من الرجال، بالإضافة إليكم.

ساعة الصفر، يحددها بلال.

وجاء الليل، وخرج الرجال مزودين بالسلاح الجديـد والخطة، وربض الرجال فوق التلال في انتظار إشارة البدء.

كان القمر ما يزال بدرا، يستطع في السماء، مرسلاً أشعته الواهنة لتغطي قمم التلال والروابي، والـريح يهـب باردا. والمدفع في يدي ثقيلاً باردا ينتظر العمل.

تململ الرجال في أماكنهم، همست إلي برهان:

- حان الوقت؟

قال في هدوء المحارب الذي يعرف طريقه:

- يجب أن نصير حتى تكون الضربة أقوى.

- ولكن الرجال..

قاطعني بسرعة، وبنفس الهدوء:

- لا يهم، القائد هو الذي يحدد موعد بدء الهجوم لا حماس المقاتل.

اختفي البدر، تحولت الأرض إلـي آبـار مظلمـة، ومضت لحظات قبل أن يعطي برهان الإشارة.

كان علي أن أقود المجموعة من خـلال درب بـين حقول حديثة الزراعة، خطوات علي حافة قناة جافة، وسرت في حذر.

كانت هناك نقطة حراسة، أشرت إلـي ثلاثـة مـن المجموعة تقدموا لمحاصرة النقطة وتحـرك البـاقون نحـو الهدف، وكان مخازن الذخيرة في المستعمرة، ليست بالضبط مخازن أسلحة وذخيرة فقط، كان المخـزن يحـوي، وفقًـا للبيانات التي لدينا، أدوات كهربائية وزراعية.

مرت لحظات بطيئة قاسية، العيون ترصد كل حركة: هذه أول مرة تخرج المجموعة في عمل منظم واقعـي بعـد تدريبات قاسية، وفي ظروف صعبة، الموت يفقـد معنـاه، يتوارى الخوف خلف جدار الفعل المباشر، زحف يونس في اتجاه الهدف، وبعده بعدة أمتار جلال، حاصرت المقدمة نقطة حراسة العدو، الترقب يكفي، عدم الاشتباك إلا في الظـروف القصوى، هكذا كانت الأوامر.

إشارة استغاثة صادرة من يونس، تقدمت أنا وبرهان حتى لحقنا به، قال بصوت ميت:

- جهاز التوقيت، لا يعمل.

شعرت بالرغبة في إطلاق الرصاص عليه، شـحنة بارود انفجرت في رأسي، هالتني حساسية الموقف، انـدفعت لأرى الجهاز، دققت النظر، كل شيء في موضـعه تمامـا، الجهاز سليم، لحظة العدم القادمة تخيف الإنسـان، تربكـه، تحيله إلى ذرات متشابكة غير واضـحة المعـالم، التـالف أعصاب يونس وليس الجهاز.

تمكنا نحن الثلاثة من وضع جهـاز التفجيـر، بعـد ضبطه، في المكـان المناسـب، وعـدنا للانضـمام لبقيـة المجموعة.

الأمور البسيطة والتافهة تسبب النتائج الخطيرة، ذرة رمل في محرك سيارة يشل حركة التدفق البشري وقتًا مـا، بدأنا في الانسحاب، ولكن الوقت الذي أضاعه يونس تسـبب في تأخير وصولنا إلي الحدود في الوقـت المناسـب وفقًـا للخطة، فقد كانت داوريات العدو في نقطة حتمية التلاقي.

انفجر مخزن المستعمرة في لحظة باهرة من عمـر الزمن، تفتت لحظات الزمن وصارت دخانًا أهـوج لمحنـاه يعلو فوق الأرض، اقتربت لحظة التلاقي مع الداورية، وكان لابد من الاشتباك.

كان من المحتم، نتيجة لذلك، تغيير الخطة، ينـاوش ثلاثة أفراد العدو حتى يتمكن الباقون من التسلل عبر الحدود.

وتطاير الرصاص، واندلعت نيران المدافع، سـمعت صيحة ألم، زدت من ضغط أصبعي علـي زنـاد مـدفعي، ورأيت الرجال يزحفون، والمدفع يوشك أن يندفع من يـدي، تقدمت قليلاً إلي الأمام، اصطدمت بجثة رجل مـازال الـدم

يتدفق ساخنًا، عبرت الجثة وواصـلت الزحـف، اشـتعلت النيران في عربة من عربات العدو، حاول جنـدي أن يفـر منها، حولت إليه بثاق مدفعي فترنح قليلاً وسقط، وواصـلت الزحف، عربة ثانية تحترق وقفز منها ثلاثة جنـود حـاولوا الفرار تحت ستار مدافعهم، احتضنهم انفجار قنبلة، الانفجار كان هائلاً ومخيفًا وقريبا مني، تصاعد الـدخان بكثافـة، لا يوجد جبناء في البشـر وشـجعان، لا يوجـد إلا البـارود والدخان، الكيان البشري خرافة، السيف والحربة.

شعرت أن يدي لا تطاوعني على الحركة، تحسست ذراعي فوجدتها لزجة، ضحكت، وعدت أزحف مـن جديـد حتى وصلت إلي حافة التل، وهناك شعرت بالهدوء يسـري في جسدي، وأنني أدخل منطقة الظلام والعدم، الكـل هبـاء ضائع في خرافة الوجود، وكأن الشيخ قد عاد، وكأنه ينادي:

- قم أذن في الناس يا بلال.

حاولت القيام، ولكني متعب، الرغبة في النوم تشدني، عاد الشيخ ينادي:

- أذان الفجر يا بلال، قم وأذن.

- لا أستطيع يا عمي، صـدقني لا أسـتطيع، لقـد حاولت ولم أتمكن.

- قم وأذن يا رجل..

- بالله عليك هلا أديت عني هذا الواجب؟

- لا، من عليه الواجب يجب أن يؤديه بنفسـه وإلا فليمت، وهذا أفضل.

- لا، لا أريد الموت الآن، أمهلني حتى أعود إلـي قريتي وأموت هناك.

- إذاً: قم الآن.

تحاملت بكل قواي، وقفت، صحت بأعلى صوتي:

- الله أكبر، الله أكبر...

أمسك بي برهان وهو يصيح في غضب:

- كفى، منذ ساعة وأنت تقول هكذا.

جلست في لحظة الوعي، تدفقت الصور، لقد عـدنا، تبينت مجموعة الصور في نظرة كلية، كان في رأسي سؤال:

- الشهداء، والجرحى، كم؟

نظر إلي برهان في لحظة تخلصه مـن الغضـب، وقال:

- العملية ناجحة بنسبة مقبولة.

قلت في ارتباك:

- أقصد، أقصد..

توارت لحظة الغضب خلف السعادة بالنجـاح، قـال برهان:

- المهم بالطبع هو زيادة رقعة الخوف فـي جـدار الثقة عند العدو..

وتليت عدة أرقام، تلاها برهان في جمـود، مخـزن كامل تم تدميره، خمسة عشر جنديا قتلى وجرحى، الحصـر الدقيق صعب في هذه الحالة، عربتان، ومدرعة آلية، احتراق بالكامل، لم نعد دون غنائم، مثل الأجداد في الزمن البطولي، وخسائرنا، حقًا هذا بالطبع الحصر الصادق، شهيد وجريح.

واستدار، برهان، في عصبية وقال:

- أنت ويونس، نعم أنت ويونس، جرحى، والسـبب أنتما الاثنان.

هللت في حماس، تراجعت عن حماسـي، وسـحبت تهللي، لا يهم هذا هو طريق العودة، القتلى شهداء والجرحى أنبياء، لقد فعلوا شيئًا، الكلمات ماتت، طوفان الدم السـاخن،

نزف الجرح، حشرجة الموت المرتقب، بريق عين المقتـول تواً، دوي دوي رصاصات خرساء، هذه كلمات حيـة، لغـة الزمن الظالم، حيث المجد كلمة تنبـع مـن صـدق القلـب المقترب من النهاية.

قضينا الأيام التالية فـي الإعـداد للعمليـة التاليـة، الاستمرار ضرورة، مشاكل الاسـتمرار تنضـج، تفـرض نفسها، كان أمامنا عدة أمور، الحصول علـى المعلومـات، يدخل أفراد من قوتنا داخل حياة عدونا ليقوموا بإرسال الخيط الضروري مـن المعلومـات والبيانـات اللازمـة لوضـع مخططاتنا، الحصول علي السلاح واستمراره، ثـم مشـاكل أخرى كثيرة، التمويل والتدريب المتطور ثم.. دائما الارتباط بالجماهير.

كان جرح ذراعي يؤلمني، لم أستطع قيادة السـيارة التي أعمل عليها، ولم أشترك في عمليات التـدريب، وكـان برهان قد سافر وجاء موعد العملية الثانية.

العملية الثانية، وكانت زرع ألغام في طريـق قافلـة حربية يسيرها العدو إلي منطقة عسكرية في جنوب النقـب، أهمية العملية وبعدها عن مركز تجمعنا، وعدم قدرتي علـي

الاشتراك معهم. كل هذه الأسباب جعلت مني كتلة أعصـاب مشدودة، حاولت أن أجرب يدي لكي أذهب معهـم ولكنهـا كانت ضعيفة لا تحمل السلاح بثقله، آثرت التخاف حتـى لا أحملهم همي فوق خطورة موقفهم، ذهب موسي قائدا لهـذه العملية.

موسي، شاب من بئر سبع، اشترك معنا في العمليـة الأولي، ورغم صغر سنه إلا أنه نموذج للمناضل المخاص، كما إنه يعرف طرق هذه المنطقة جيدا.

عدت إلي داري، قلقًا مهموما، بعد أن ودعت رفقـاء السلاح، الشعور بعدم القدرة على المشاركة يسـلب الفـرد رائحة العمل الطيب، وما إن وصلت إلي الدار حتـى جـاء رسول من عند أختي تطلب منـي الحضـور بأسـرع مـا أستطيع.

وأصلت السير إلي المخيم، تسللت عبر دروبه حتـى أتيت أختي، وهالني الحزن الرابض على المكـان، وبعـض النسوة يدخلن ويخرجن في ارتباك، دنوت منها، وسألتها:

- ما الأمر؟

لم يتوقف سيل البكاء عند أختـي، الأحـداث تولـده وتنميه، قالت، من بين نشيجها البكائي المولود:

- زوجي.

- ماذا به؟

- مات الليلة..

مات، شعرت بغضب هائل لا أدري لمـاذا: مـات شهيدا أحد أبطال مجموعتنا ولم نبك، ولم نسمح لأنفسـنا أن نقول إنه مات، والليلة، بالتأكيد، ولأن هذه طبيعة المعـارك، سوف يقع منهم واحد، أو ربما اثنان أو ثلاثة أو أكثر، ولـن يزيدنا ذلك إلا إصرارا وتحديا، والليلة مات رجل عجـوز، سبق موته من قبل في عام النكبة.

- عند الله.

نظرت إلي وهي ما تزال تحاول أن تكتم دموعهـا، وقالت:

- كان يريد رؤيتك قبل وفاته.

- كيف؟!

- خرج بعد العشاء إلي أصحابه ولكنه لـم يمكـث برهة، حتى عاد وهو بادي الحزن، أطرافه ترتعش ويتمـتم،

(الويل لهم الويل لهم)، ثم يدور في عصبية وينادي عليـك، حاولت تهدئته أو معرفة ما به..

ولكنه لم يفصح عن شيء..

- وماذا بعد؟

- ظل يتمتم أحيانًا مناديا باسمك، وأحيانًـا بأسـماء أولاده، محموما حتى مات.

- ولم يقل شيئًا آخر؟

- لا، ظل أكثر من ساعة ينادي عليك حتى.. جلست في الركن الآخر بعيدا مهموما، رأسـي محمومـة، عقلـي مشتت، أختي تلعب لعبتها الوحيدة وتبكي، شـهقات بكائهـا تتردد في إيقاع أبدي حزين، الرحمة فـي القلـب البشـري خرافة، تقليد اخترعه البشر ساخرا من البشر، صدقه البشـر جميعا، لعبة الإنسان أن يميز نفسه عن بقية الكائنات، لعبـة زائفة، يا للإنسان المتوحش!

لم يكن حزني على وفاة زوج أختي، بقدر مـا هـو حزن على كل مهاجر يموت بعيدا عـن أرضـه، وكلماتـه الأخيرة ليست سوى لعنة لا يملـك سـواها ينزلهـا علـى مغتصبي أرضه.

السماء لا تمطر ذهبا، بل تمطر، أحيانًـا، قطـرات ماء، وحبات ثلج، في حين يبتسم الملائكة في سذاجة، ويموت فلاح عائد من حقله برصاص جندي إسرائيلي يتوارى خلف حائط من مدافع أمريكية، وتمطر السماء، لا ذهبا بل حبـات مطر من ماء وثلج، ويأمر الجندي سيارة نقل العمال العرب بالتوقف، ثم يأمر العمال بالهبوط منها، بحجة البحـث عـن البطاقات، كان من الممكن أن يأتي بحجة أخرى، ولكن هكذا الرواية، قالوا الحكاية، حكاية الـذئب والحمـل المعـادة، أو حكاية الإنسان يحمل سلاحا والإنسان الأعزل..

هكذا قال الرواة، أمرهم الجندي بالقوة التي تطل من مدفعه، بالوقوف صفًا، وقفوا، أمرهم برفع الأيـدي، رفعـوا وتمطر السماء وتتساقط أجساد العمـال برصـاص المـدفع الرشاش، ومات الكثيرون، والسماء تمطر، لا ذهباً بل حبات مطر ماء وثلج.

نحيب نساء، يأتي كالموج الهادر خلف سفينة، تتلاطم موجاته في رتابة، كأنه صفير ريح في خيمة لاجئ في شتاء بارد.

- انتهى كل شيء.

نظرت إليها، عجوز، كانت ملامحها جادة صـارمة، ملابسها سوداء، قلت في هدوء:

- حسنًا.

قالت أخرى:

- عليك أن تأخذ أختك معك.

أضافت أخرى:

- مات الرجل، ولن يعطوها المعونة ثانية.

ارتفع صوت امرأة خنفاء:

- كانت البطاقة باسمه.

تشابكت مجموعة من الأصوات:

- واليوم مات، وربما..

- بالطبع.. هي وابنها..

- تموت من الجوع، هي وابنها..

- الشباب لا يفهم ذلـك، لا يفهـم إلا بعـد فـوات الأوان..

- الرحمة..

الرحمة، المزيد من الرحمة، شعب الرحمة..

قلت في تبرم:

- حسنًا، سيكونان معي لا داعي للقلق.

انصرفت السيدات في صمت، رفعت الغـلام إلـى وجهي..

وسألته:

- ما اسمك يا سبع.

أجابني الغلام في صوت رفيع حاد:

- صلاح الدين..

***

(١١)

اختفى القمر وراء الجبل، زحف الرجال إلي الأمـام وتفرقوا إلي ثلاث شعب، كل شعبة خمسـة عشـر رجـلاً، مزودين بالسلاح والمتفجرات، كانت المهمة شـاقة، ولكنهـا ليست الأولى من نوعها، لقد تدربوا عليها عشرات المرات، بلغ مجموع عملياتنا فوق المائة، وخسائر العدو في تزايـد، والشهداء من جانبنا أيضا في تزايد، ثلاثون والجرحى ثمانية، الدماء تغلي في العروق والسلاح في الأيدي والدرب طويل.

أعطى يونس الإشارة بـالخطر، توقـف الزاحفـون والأسلحة مشرعة إلى الأمام، ومرت لحظات ثقيلـة بـاردة، داورية الحراسة تدور حول الجبل، كشافات عرباتها الأمامية تبرق في فضول، تكاد تفضح وجودنا، وكانت الأوامر عـدم الاشتباك مهما كان الأمر، الاشتباك معنـاه فشـل الخطـة، فروسية الزمن الغابر لا تصلح إلا في خيالات الزمن الوردي في لحظة حلم اليقظة لفارس يركب حصانًا خشـبيا، وكـان الصمت.

خشيت أن يبادروا هم بالهجوم، فكرت فـي أشـياء كثيرة، لو استمروا يدورون حول الجبل لعرفوا الطريق إلينا،

وكانت الضربة الأولى لهم، ودارت عربات الداورية مـرتين حول الجبل، ثم تحركت مبتعدة. أمرت بمواصلة الزحف إلي الأمام بسرعة. مضت لحظات قلقة محمومة، مـرة أخـرى أعطى يونس إشارة الخطر، وتوقفنا ثانية، جاءت مجموعات جديدة من قوافل الحراسة في مدرعات ثقيلة، راحت القوافل الجديدة تلعب لعبة الشرطة، ودارت حول المكان.

نتعلم من التجربة، تيقنت الآن أن هناك إخبارية لدى العدو بعملية الليلة، الإصرار على البحث بكل هذا العدد مـن المدرعات بأنواعها المختلفة يؤكد اليقين لدي.

لم يكن أمامنا سوى أمرين، الاشتباك ونبدأ الضـربة الأولى، أو التسلل من الحصار والاختباء في أمـاكن أكثـر أمنًا، لحين تنفيذ عملية نسف محطة الكهرباء، وكـان علـي الاختيار.

المدرعات والتحصينات تعطي القوة للمقاتل النظامي، وخاصة عدونا، ولكن الشعور بالخوف يتسرب إلـى نفسـه، لأنه يحارب فوق أرض، هو يقينًا، يشعر بأنـه اغتصـبها، والأسوار ربما تحميه من الخارج ولكنها لا تحميه من داخل نفسه.

الفروسية ذهبت لتنام، تحرك الأفراد، بعـد الأمـر بالانتشار تسللوا في سهولة، عبر أخاديد الأرض المطحونـة صاب العجلات، زحف الرجال بعيدا عن قوات العدو.

كانت خطتي تعتمد علي تضـليل العـدو، أتـركهم يبحثون في جدية في المنطقة التي تم التبليغ عنها، وبـالطبع لن يجدوا شيئًا ومن ثم يكتشفون كذب المصدر الذي نقل إليهم أخبار العملية. واصل الرجال الزحف بسرعة، حاذينـا الآن أشرطة السكك الحديدية، اندفع المكلفـون بتركيـب الألغـام للعمل، بينما قامت مجموعـة القناصـة باصـطياد رجـال الحراسة، القتال لعبة الرجال، وتم كل شيء وبدأنا العودة.

نحن نعرف الأرض، ولنا فيهـا شـقوق الأسـرار، دروب من الطرق البعيدة لا يعرفها غـزاة الأرض، تقـدمنا خلالها بسرعة، ولكن كان علينا أن نمر بـأرض مكشـوفة، مساحة عديمة السرية، مفضوحة مثل الوجه النجس، بدأنا في اجتيازها، انطلقت مدافع من بعد، عبرت الصـواريخ فـوق رؤوسنا، لعبة الشلل، الإصابة غير مباشـرة، يبـدو أنهـم يرغبون في استلامنا أحياء، رهائن جيدة !...

المعارك تصنع الأبطال، وأحيانًا يصنع الأبطال المعارك ولكن هذا يحدث أحيانًا، والغالب أن الأبطال يموتون، وتظل الشعلة هي البطل، أمرت الرجال المتقدمة بالصمت والانبطاح، أشرت إلى المجموعات التي مازالت تزحف بجوار التل الخلفي بالدوران خلف التل في محاولة يائسة لتطويق العدو.

استمر إطلاق النار من جانب العدو للإرهاب مدة طويلة الصمت المحكم لمقاتل يوشك أن يقع في بئر العدم، تقدمت منا مجموعات من المدرعات الخفيفة، تناوش في محاولة مكشوفة، أمرت رجال المقدمة برفع الأيدي علامة التسليم.

كفت مدفعيتهم عن إطلاق النار، بعد أن خيل إليهم أن قوات الفدائيين قد استسلمت تماما، وبرز قائد الداورية وفي لهجة عربية غريبة، صاح:

- ألقوا الأسلحة علي الأرض.

تحرك الرجال ببطء، عاد قائد الداورية وأطل من مصفحته وصاح ثانية:

- أربعات تشكيل.

انطلقت رصاصة قناص من رجالنا، خلـف التـل، واخترقت رأسه وفي لحظة واحدة كان كل الرجال يطلقـون النار من الأمام ومن الخاف على الداورية التي أربكها هـذا الحادث. لحظات قاتلة قبل أن تبدأ في إطلاق نيرانها، ولكـن كانت هذه اللحظات كافية لشل حركتها، كما أعطت رجالنـا فرصة التمركز وإطلاق النار على العدو.

كان الخطر شديدا علينا، وخاصـة هـؤلاء الـذين يحاربون في أرض مكشوفة، ولكنها لحظات مـن التـوهج القتالي للاجئ يقاتل في سبيل بيته، المدافع حصدت ثلاثة من الرجال دفعة واحدة، سقطوا شهداء، فكرت، مرة أخرى فـي حيلة..

انحرفت قليلاً عن المجموعة، تدحرجت سريعا حتى أصبحت على مقربة من أول مدرعة من مدرعات الداورية، فكرت، مرت لحظات من الانبهار العاطفي، إن كان علي أن أموت فليدفع العدو ثمنًا هائلاً لموتي، تمكنت من وضع قنبلة ناسفة في المدرعة، انسحبت بسرعة إلى الثانيـة، لحظـات الانبهار تتسع، انطلقت زاحفًا إلي المدرعة الثالثـة، أحيانًـا تصبح الحياة لا قيمة لها، الموت لا معنى له إلا في لحظـة

وقوعه، انفجرت المدرعات في دوي رائع جميل، مشعلاً نارا مقدسة بددت ظلمة المكان.

مدرعات العدو بدأت تنسحب بفرديـة باحثـة عـن وسيلة الهرب، وتخبطت في الدروب، أحس الرجـال بـدون أوامر أن هذه فرصتهم وتدفق شلال ناري من مدافع وقنابـل الرابضين في صبر، ازدادت وحشية الجنود الـذين راحـوا يطلقون المدافع في خوف، الطلقات كانت تكفي لنسف مدينة، ولكنها طائشة أعماها الخوف.

فقدنا نصف رجالنا، تقريبا، علمتنا الحرب أن نكـون صرحاء، فوق أن علمتنا الحرب نفسها، تحطمـت داوريـة العدو إلا من فلول هاربة، ولكن المدد الجوي والبري سرعان ما يصل، هناك نقطة ما يحتفظ بها العدو ولا يتركهـا أبـدا وفيها وجوده، وبفقدها يخسر كيانه كله، لو أمكن معرفة هذه النقطة جيدا لأمكن إحراز النصر المطلق والأبدي، وكان لابد من الانسحاب السريع تفاديا لوصول المدد، أشرت إلى عشرة رجال للبقاء معي للمناوشـة علـى أن يقـود يـونس بقيـة المجموعة عبر الحدود.

توقف الضرب لحظات، ساد الهـدوء، نجـوم فـي السماء، ظلام لا نهائي، أنفاس الرجال لاهثة بجوار أذنـي، نوعا من الفراش جرح الظلمة، انبثق سيل من النار من مدفع جندي أهوج، بدأت المجموعات فـي الانسـحاب، تحركـت خطوة واحدة، كنت أود أن أفكر جيدا، اندفع سيل من النيران في اتجاهي، انبطحت ثانية، همس رجل من رجالنا:

- الألغام.

وهج أحمر، كانت عيناه، شعاع من التماع مخبـوء، أفسدته حياة الخيام والمذلة، جعلته يقف مشلول اللسان والقلب واليد، والآن، يكاد الشلل يتسرب، ليأخذ طريقه نحو الموت، سألته:

- ماذا تقصد؟

- نضعها في طريقهم.

الوهج الأحمر، تحول النور الأخضر البـاهر الـذي يقف بين النار ووقودها.. نفذ.. لا داعـي للوقـوف هكـذا، الحركة السريعة هي مفتاح نجاح العمليات ذات الأهمية، قالها حكيم هندي، لا أذكر اسمه، الرجال يزرعون الألغـام، كنـا نفشل في زراعة القصب ونستورد السكر، ولهذا كان السكر

مرا، عناقيد العنب أقصد عناقيد الألغام تنبـت فـي الأرض، وبعد قليل تطرح العناقيد حبات السكر، انتهى الرجـال مـن المهمة، بدأنا نعود، كان تقديري للمدد الجوي وخطورته هو محور تفكيري، سقط رجل جريح، حمله رفيقاه حتى حفـرة كانت بتل رملي، عربات العدو المدرعة عادت بأسـرع مـا توقعت، كانت تقذف بنيرانها كنوع من الحماية، كان لابد لنا من الاختباء، تسلل الرجال في سـهولة عبـر أخاديـد الأم الحنون، ابتلعتهم، تقدمت العربات أصـبحت علـى وشـك الانقضاض علينا، الألغام لا تعمل، خانتنا عناقيد العنب، بقدر علمنا عن هذه الحبيبات القاتلة وضعناها في الأرض، حينمـا نعود إلى الديار، سأحاول أن أتعلم المزيد عن هذه الأشـياء الملعونة، ولكن تقدم العدو يعني الهلاك الكامل، لن أسـتطيع أن أدرس أكثر، ربما يحاول يونس ذلك، لو أن بيدي مفتـاح العالم، ذلك العالم المجهول، الذي يرقد فـي حضـن الأرض على بعد هائل من مركز الكون، لو أن..

انفجر في قلبي شريان الأمل، هتفت من أعماقي: يـا رب. تطايرت العربات كاللعب المحترقة في حريق مصـنع لعب الأطفال ارتفعت ألسنة اللهب والدخان، عوت المدرعات

في ألم وهي تتمزق تطايرت الشظايا في انـدفاع محمـوم، صرخت آلاف القطع من الصلب في فزع، زحـف الرجـال عبر طريق جافة، كانت تعمل به الجرارات الزراعية وتمهده للزراعة.

جاء الجزء الأخير من الليل يحمل النـدى الرطـب الذي يبلل الجباه المحمومة، وسار الرجال في ثقة.

كانت المسافة مازالت طويلة، وذلك القتـال العنيـف الذي دار في ضراوة ووحشية قد دفع إلى الرجال جرعـات من الفرح والسعادة جعلتهم لا يشعرون بالتعب، حتى وصلنا إلي أرض التحضير للعودة.

بالطبع، الخسائر في الرجال فادحة، والأمر في حاجة إلى المزيد من الرجال، والرجال في حاجـة إلـي السـلاح والإيمان هذا صحيح، الفرقة في حاجة إلى زيادة الإمكانيات، وخاصة البشرية المدربة لكي تزيد الفاعلية القتالية.

الأفكار تتصارع، تنمو داخل العقل البشري لتدفع إلى العالم الخارجي ببعض الآراء المشوشة الحقـود، يبـدو أن العقل البشري، حتى الآن، رغم اخـتلاف طبقـات وطـرق التفكير ووسائله لا يهمه هذا العالم كثيرا، فـالحروب هـي

التعبير العملي لتلك الآراء المشوشة الحقود التي يلفظها العقل البشري، كوسيلة لتدمير العالم، ولكن الخطر يكمن في تلـك العقول التي لا تفكر وبالتالي لا تفرز آراء طائشة ومازالـت حتى الآن تحلم بالخير والسلام، وخلاف ذلك من النظريـات الفلسفية الغير مجدية والتي يرغب العالم في أن يضعها داخل العقل البشري، ولهذا قررت تبني نظرية العالم.

لابد لهذه الفرقة من أن تنمو، وأن تصبح جيشًـا أو شيئًا شبيها بذلك، يخضع لأسس علميـة منظمـة للتـدريب والتسليح والتخطيط للعمليات، علاوة على العديد من العمليات الأخرى المساندة والضرورية.

العودة إلى قوانا تحتاج إلى كل شيء، وقبل كل شيء تحتاج إلى التنظيم، قالوا لي إن هناك فرقًا، مثل فرقتنا، تعمل في أماكن أخرى من الحدود، قلت، لو أمكن وجـود وحـدة تربط هذه الفرق وتنسق عملها، وتوحد خططها...

ضحك يونس، وقال:

- يصبح لنا جيشًا!

نظرت إلي الأفق، كان رأسي يدور بأشياء لها بريق الذهب وقلت في ترنيمة الصلاة:

- لم لا؟ الحارس في الليل يغني، يضع بندقيته فوق كتفه، ويغني، تلك سماء الليل الوحيد، وهذا عالمنا المشنوق فوق أوهام الفارس الذي يأتي، من أين لا ندري، والقلب لا يصدق وجود ذلك الفارس القادم، والعقل كذلك، وددت لو صحت في عالمنا المعتوه، لا فرس هناك في مربط الخيل ولا فارس إلا في الأحلام.

يونس قطع الترنيمة، وقال:

- وأين المال والسلاح، والأرض اللازمة للتدريب؟

هل نسيت كيف نحصل علي السلاح، وكيف نتدرب؟

أهاجت كلمات يونس في نفسي المرارة، مرارة كنت أشعر بها وأحبسها في نفسي، في داخلي، أحيانًا أجترها في صمت، هؤلاء التجار الأثرياء الذين يتوسعون في أعمالهم وينفقون بغير حساب، ويعيشون في لذة ووفرة من العيش، وكأن بلادهم آمنة، هؤلاء الضاحكون اللاهون، وبلادهم باكية.

تذكرت حكاية قديمة، ذات مرة، دخلت على صاحب الشركة التي أعمل بها سائقًا، فوجدت مائدة طعام مدت بأشهى أنواع الطعام وأطيبه، كما رصت عليها أنواع من

الشراب الغالي الثمن، وجلس حولها مجموعة مـن التجـار الأثرياء، الذين راحوا يأكلون في شـراهة ويشـربون فـي صخب وميوعة، تخيلت هارون الرشيد، هارون الرشيد فـي حكايات ألف ليلة وليلة، ذلك المفجوع المتورم من الطعـام، عاد ذلك الحرمان الذي يسيطر على أحلامنا، انـدلعت فـي رأسي نار المهانة، يا للوطن السليب، ربما يكون السبب فـي ذلك الجوع الذي أحسه، وربما أشياء أخـرى، يـا للـوطن الضائع، وبنوك يأكلون ويشربون ويمرحون، لاهـين عـن ماضيك وحاضرك، ربما الحقد النابع مـن وجـدان الطفـل اليتيم، وربما أشياء أخرى.

صرخت في يونس:

- من مال هؤلاء؟

قال بدهشة:

- من هؤلاء؟

- الذين يملكون، ويزدادون ثراء، وتزداد بطـونهم انتفاخًا الذين نسوا أو تناسوا أن لهم وطنًا مفقودا في قبضـة الشيطان.

طافت في رأسي كلمات برهان، وهو يسير معي في شوارع مدن القطاع:

- غريبة!! الناس يضحكون!!

قلت، وأنا لا أفهم ما يعنيه:

- لابد أن هناك ما يضحك.

- فعلاً، هناك ما يضحك.

نظرت فلم أجد شيئًا مما قال، مضت لحظات غبـاء داهمت عقلي، نمقت ذلك الفكر الرتيب البليد، الصوفي، قـال برهان في صوت عكّر صفو الفكر الصوفي:

- لا، يجب ألا يسعدهم شيء.

سألت في بلاهة، وعقلي مازال تائها فـي حواديـت القمر وتهويمات الصوفية:

- لم يا برهان؟

اخترق صوته حاجز الطبقة الأولي لرتابة تفكيري.

ووقفت الكلمات دون الطبقة الثانية:

- لأن قراهم محتلة، ومخادعهم منهوكـة الحرمـة، ودماء قتلاهم لم تجف بعد.

اخترقت الآن الكلمات الطبقة الثانية من طبقات الفكر الصوفي، تكومت الكلمات فوق جدار العقل الأجوف، سمعت صدى الكلمات، تأوهت من شدة الألم، تاقت نفسـي إلـى أن أقول آه، ولكني لم أقلها.

(١٢)

لا يزال على الفجر أكثر من ســاعة، وأبــن أختــي يبكي، رغم كل المحاولات التي تبذلها أختي في إسكاته، أنين طفل في رتابة وإصرار يشبه طنين النحل الخائف، في ساعة ما قبل الفجر، يفتت الأعصاب، يذروها في ضــراوة تقتلــع النوم من العين المتعبة، والاجتماع الذي عقد في أول الليلــة كان صاخبا كثير المناقشة، هدتني الثرثرة الجوفاء جعلتنــي راغبا في النوم، هروبا من لعنة الألسنة، ولكن هــذا الغــلام الشقي يبكي في رتابة أبدية.

خلال الاجتماع، اتضح لي أنني يجب أن أحارب في جبهتين، أولهما سهلة ميسرة، فهي حرب معروفة، مدروسة، أقصى ما فيها الموت أو الأسر، وهي تلك العمليات التي نقوم بها، أما الجبهة الثانية، أو الحرب الثانية، هي تلــك التــي لا يصلح معها الموت، أو الأسر بل إنها أقصي من ذلك وأمر، حرب الكلمات.. الكلمات الجوفاء ذات الرنين الأصفر، والتي تبدأ من ابتسامة باهتة إلى مؤامرة تحاك في الظلام وتجعــل منك لصا أو خائنًا.

خضت غمار الأولي، وعايشتها لهباً حارقاً، رصاصاً ممطراً وألغاماً مزروعة، وقنابل، فعلمتنـي وجعلـت منـي مقاتلاً، وخضت غمار الثانية، كلاماً مثـل السـهام وأمثـالاً وحكماً ومناقشات، ومؤامرات يقودها هؤلاء الذين يملكـون ويخافون على ما يملكون ويمشي على دربهم هؤلاء الـذين يطمعون في أن يتملكوا ويخافون على ما يطمعون فيه.

هدني الحوار في الاجتماع، هـاجموني واتهمـوني بالطمع والجشع والأنانية، واتهموني ًأيضا بالإسـراف فـي الخيال والوهم، فلن تخرجهم مثل هذه العمليات غير المجدية، لن يرحل المستعمرون في سدي بوكر ولا كل المسـتعمرات في مستعمرات النقب، لأن مولداً كهربائياً قد نسفه الفدائيون، أو عشرة أمتار من شريط السكك الحديدية أو حتـى مخزنـاً للأسلحة، واندفعت الأصوات المحللة الموضحة، شارحة مـا خفي من الأمور الهامة التي لا يفهمها سواهم، الأسلحة تأتيهم من كل الجهات، فما معنى نسفها وتـدميرها لأنـه سـيأتيهم غيرها، وأوضح البعض الآخر هذه العمليات تفيـدهم لكـي يجعلوا مورد السلاح مفتوحا دائما، الكلمات في لغتنا كثيـرة المترادفات!..

العبارات الجوفاء، والأفكار السطحية، لا تزعجنـي بقدر ما أزعجتني كلمات خرجت من فم رجل شاحب، قصير القامة جلس في المؤخرة، منزوياً على نفسـه، قـال عـدة عبارات ذات معنى متشعب، اتفاق إسـرائيل ودول أخـرى، وأحس الرجل بأنه قال أكثر من اللازم فغادر الجلسة ومضغ العبارة الأخيرة في فمه وابتلعها ومضى.

كانت أجهزة الرصد لفرقتنا قد واصلت فـي الفتـرة الأخيرة الإبلاغ عن تحركات لجيش العدو على الحدود. بـل إن أحد رؤساء المجموعات في أجهزة الرصد حمل إلي خبراً مؤداه أنهم يستعدون لغزو شامل لمنطقـة القنـاة مسـتغلين الحوادث الدولية الموجودة الآن في المنطقة.

وقد حاولت دراسة كل هذه الإخباريات، ومن خـلال هذه الدراسة حاولت تخيل صورة ما سوف يحـدث، يحتـاج الفرد إلى الكثير من اليقظة الوجدانية لكي يرسم لنفسه فكـراً معيناً يختلف عن الأفكار الشائعة، أو مـا يسـمى بالأفكـار الجاهزة المعدة للاحتواء.

لا يزال الغلام يصرخ في حرارة، والرغبة في النوم تشدني إلى الفراش رغم ضربات بكاء الطفل، ولا يزال على

موعد صلاة الفجر ساعة أو يزيد، تمنيت أن يكف الغلام عن البكاء، وبقيت مطروحاً في فراشي.

الزمن المر يمر بطيئاً، والنفس المتعبة نفس شيطانية النوايا حامت حول رأسي أفكار عديدة مهووسـة، ولكنـي، أخيرا لم أجد بدا من القيام والذهاب إلي الجامع القريب فـي انتظار صلاة الفجر..

الشوارع خالية مظلمة، هادئة، يأتي من بعد قريـب صوت هدير أمواج البحر في رتابة أبدية. توقفت أشم رائحة هواء آخر الليل المندى برائحة اليود، عله يذيب من نفسـي توتر الإرهاق النفسي والجسدي، يبدو أن هناك أصواتاً تعلو على هدير البحر أحيانًا، وتأتي من الجنوب فـي زمجـرة، أصغيت السمع لحظات، ولكني متعـب، لـم أسـمع جيـدا، واصلت السير نحو المسجد، خطوت إلى الداخل لم يكن هناك من أحد، الفرش باردة تحت القدم المخدرة، والسكون يـوحي بالرهبة، والأعمدة تبرق في الظلمة، تبدو كأشـباح زنجيـة لامعة، واخترقت صحن المسجد في خشوع حتى وصلت إلى دورة المياه، الماء بارد برودة تجمد الـدماء فـي العـروق،

عدلت عن الوضوء، وعدت إلى صحن المسجد، وأعود بعد قليل.

النوم سلطان، قالت ذلك امرأة ما، في لحظة انتظارها لزوجها العائد من المقهى، تمددت وأسندت رأسي لعمود رخامي أملس، تبخرت بعض الأفكار الصبيانية من عقلي، تمددت الصور ويبدو أنها استلقت داخل رأسي، نامت في سعادة، حاولت أن أحتفظ بعقلي مفتوحاً لتيارات اللحظة الحاضرة، وجاء رجل يرتدي السواد وفي يده ما يشبه السيف، قربه من موضع قلبي وصاح:

- أنت مسلم؟
- الحمد لله.

لم أقل ذلك بالضبط، وللحقيقة لم أفتح فمي، ولكن هذا على الأقل ما أردت قوله، وما كان يجب أن أقوله.

هاج الرجل وكشر عن أنيابه، وقرب السيف من موضع قلبي أكثر، وقال:

- سب محمدا.

نظرت إلى الرجل فوجدته قبيحاً إلى درجة كبيـرة، بارد النظرة، هززت رأسي علامة الرفض، كانت بي رغبة للسخرية منه، جلس بجواري ثم قال:

- سب محمدا وسأعطيك مالاً لا يفني أبدا.

حاولت أن أقف، أو أن أصيح، وحاولت جاهـداً أن أتحرك فقط ولكني لم أستطع وكأن قيوداً تربطني بـالأرض، ضحك الرجل في سخرية، ومد يده إلى رقبتي وراح يضغط عليها بقوة وهو يردد:

- سب محمدا، سب محمدا.

بذلت محاولات مستميتة لكي أبعده عنـي، ولكنهـا ذهبت جميعها دون فائدة ولم أتحرك من مكاني، حزنت على نفسي أن أموت هكذا بيد شيطان وأنا ممدد لا حراك لي مثل فأر مذعور، واشتدت قبضة الرجل الشيطان فـوق عنقـي، وجاء آخرون راحوا يغزون سهاماً في كل قطعة من جسدي في ضلوعي وأحشائي، وأنا مقيد لا أستطيع مـنهم فكاكـاً، وأخيرا استجمعت كل قوتي وضربته بيدي، فصرخ الرجـل وقال:

- قم يا بلال، اليهود دخلوا القطاع.

وقفت مذعوراً، ذلك الكابوس المخيف تطـور إلـى واقع ملعون.

- كيف، كيف؟!

- من ساعة وأنا أوقظك وأنت نائم لا تتحرك.

- والرجال؟

- يقاتلون، ولكن مـاذا يفعلـون؟ اليهـود يـدكون الشوارع، غمام من الطائرات تقذف حمماً من جهنم.

خرجت من المسجد بأقصى ما أستطيع من سـرعة، جريت في لهفة والقنابل تتساقط بجواري، وكلما مرقت مـن حارة إلى أخرى أجد الحرائق مشتعلة في كل مكان، وقنابـل الطائرات تتساقط بغير حساب.

وتذكرت ما حدث لي منذ ثمانية أعوام في قريتي (أم السلول) ذلك ما فعلته في الماضى، أجـري فـي الـدروب والحواري أبحث عن بيتي، وقنابل الطائرات تهوي على كل شيء، أصواتها تدوي في عويل ممقوت، فحيحها مثل أفاعي الدمار، والدور تنهار لتتحول في لحظة إلى ركام، صرخات امرأة ثكلى، طفل يعوي مثل ذئب خائف.

يبدو أنني وصلت بعد الموعد، فقـد وجـدت داري كومة أنقاض يتصاعد منها الدخان، اندفعت كالمجنون أبحث عن أختي بين الأنقاض.

درت أبحث بين الخرائب، عقلي مشلول، خرائطـي محترقة ملابس فرقتي رماد، كتبي أشيائي، تلك القصاصـات من الأوراق العزيزة على القلب، ذلك الركن من البيت حيث كنت أجلس كل مساء، تحولت الدار إلى خرائب كريهة، قطع من الحديد، رماد قطع من الحجارة والطوب المحروق، دخان يتصاعد، هذا هو بيتي..

ولكن أين الأسلحة وذخائر الفرقة ؟

طار فؤادي هلعا، وتصورت آمـالي حطامـا مثـل داري.

تهون كل الأشياء، أعز أشياء ولا أفقـد بندقيـة أو مجرد رصاصة، تحول بحثي إلى تصرفات محمومة لا هدف لها، فجأة سمعت أنات ضعيفة، توجهـت ناحيـة مصـدرها بسرعة، واقتربت، رفعت بعض قطع الخشب، وجدت أختـي راقدة في بحيرة من دمائها تنازع الموت:

- أختي، صباح..

ردت في صوت يموت:

- لا، لا تقترب.

- ولكن..

وتلاقت عيوننا، أختي ذلك الكائن الحبيب، لـم أكـن أتذكر ملامح أمي إلا إذا نظرت إليهـا، أحلامـي، قريتـي، أراهم في النظر إلى أختي..

- انتقم يا بلال، السلاح وابني..

تذكرت الغلام، قلت بسرعة:

- أين؟

قالت في صوت متقطع:

- أسفل البيت المجاور..

- ولكن..

لم ترد، ماتت، كفت أختي عن الحياة، كما سـبق أن كف أفراد أسرتي جميعا، عن الحياة،

ماتت أسرتي، واللحظة الباكية مضت، ذلـك حكـم غادر، من أجل المعاونين في السماء والأرض وبسببهم، يـا إلهي أين أنت؟! هل كل الأرض تحظى عندك بنفس القدر من العناية، ورحمتك وبركتك تنزلها علينا كما تنزلها على العالم

كله بنفس القدر، يا ربي، أمدد لنا يدا، أو اقذف بنا جميعا في آتون الجحيم، لا تبق منا أحداً، أحرق هذه الأرض، انسفها من ملكك إن كنا أخطأنا، لكن لا تسلط علينا الملعونين من عبادك.

وعادت الطائرات في هجمة جديدة، وقذفت بالمزيد واندفعت طلقات المدافع مولولة خلفها، تملكتني رغبة في أن أقف في الخلاء، تحركت، تذكرت الغلام، دلفت إلى البيت المجاور، وجدته يلهو في براءة وسعادة برصاصة فارغة، وأسلحة فرقتي بجواره وكأنه يحرسها.

توقفت لحظات حائراً فيما أفعل، كيف أحمي الطفل وأبعده عن قسوة الحرب، والضرب يأتي من كل مكان، ماذا أفعل؟ وفجأة وأنا في حيرتي، وجدت فاطمة تقترب وتقول:

- هات الطفل.. سيكون معي في أمن.

ناولتها الطفل في صمت ونظرت إلى عيونها الحزينة، بلادي هذه الرياح الشمالية، أضناه السهم المغروز تحت اللسان شعرت أن الرب ينظر إلي في عتاب من خلالهما.

قسما لأنتقمن، قسما بالله، بالأرض، بالدم، بالسـلاح بالكلمة في فم الطفل اليتيم، لأنتقمن لك يا بلـدي، وحملـت سلاحي واندفعت خارجاً.

كانت المعركة قاسية وغير متكافئة، قـوات العـدو تساندها قوات أجنبية أخرى، طائرات فرنسـية وإنجليزيـة وقوات أخرى غير معروفة الجنسية، لقد حاولت فيمـا بعـد حينما هدأت الأحوال أن أفسر الأمور لنفسـي، هـالني مـا تبينته، لقد كان واقعاً مراً ذلك الواقع الذي كنا فيه ونحن دون العالم لم نفهمه وحتى الآن أشعر أن هناك أشياء غير مفهومة في صراعنا مع الحياة، البوارج الحربية تقذف الساحل فـي عنف، الشعب أعزل من السلاح إلا قليل من حملة البنـادق والمدافع، والمدافع صغيرة قليلة الـذخيرة، وكفـة الحـرب الحديثة مع الأسلحة الأقوى.

كان همي الأول جمع صفوف فرقتي للقيـام بعمـل منظم، تبدو الأحداث الآن غريبة وكأنها حدثت منذ قرن، لو أمكن تعطيل تقدم العدو حتى تأتي النجدة من الجيش العربي.

محاولات عدة تحت وابل مطر الموت من الرصاص والقنابل استطعنا جمع نصف الفرقة تقريبا، اتفقنا على نسف

الطرق المؤدية إلى قلب القطاع، وتعطيل الوحدات الاستطلاعية للعدو الخط الأمامي لمدرعات العدو، ربما أمكن عرقلة سير العدو واندفاعه لاحتلال مواقع متقدمة.

قسمنا الفرقة إلى مجموعات صغيرة، ليسهل عمل كل مجموعة تقوم بعمل منفرد، كان الضرب كثيفاً ومركزاً والأمل في نجاحنا ضعيفاً، العدو دفع في حركة مباغتة كل قواته في هجوم من ثلاثة شعب، وذخيرتنا ليست كافية.

تقدمت مع المجموعة التي كلفت بالزحف خلف خطوط العدو الأمامية، لضربه من الخلف في محاولة لنسف مدرعاته أو تعطيلها، اخترقنا الحدود في سهولة غير متوقعة، تمكننا من اختراق خط النار الأول والتسلل خلفه، أصبحنا نشكل رأس جسر متقدم لبقية المجموعات، لو، لو هذه تصنع العجائب في الزمن اللاحق، ولكنها لا تصنع شيئًا في الزمن الحاضر، ومع هذا لو أمكن أن...

بدأنا في تنفيذ أول سلسلة من العمليات، كان العدو يعتمد على المدرعات والعربات المصفحة بعد التمهيد بعمليات الطيران، بعض السادة يفسرون ذلك بالجبن والخوف، وهؤلاء مازالوا يعيشون في حرب الزمن الغابر،

زمن السيف والصـيحة التقليديـة، ولـذلك فـإن الجبنـاء سينتصرون، استخدام المدرعات أعطانا فرصة رائعة للتسلل. خلف الخطوط.

تقدم ثلاثة من المجموعة في عملية انتحارية لوضـع ألغام في طريق القوات المتقدمة في الخط الثـاني، علـى أن تقوم باقي المجموعة باستخدام القنابل لنسف عربات الصـف الأول المتقدم.

وقذفت بأول قنبلة ناسفة، جاءت في الصميم، وسـط (المجنزرة) تماما، وكأنها فقاعة هواء لمست جسـماً صـلبا، تفجرت العربة تناثرت منها القطع الصلبة مع شظايا القنبلـة أحدث الانفجار ارتباكاً هائلاً في قوات العدو، بدأت تتراجـع بعض المدرعات، تتساقط قنابلنـا كـرذاذ الملـح، تتابعـت الانفجارات، وقع مقاتل شهيداً داست عليـه مدرعـة ثقيلـة وراحت تقصف في جنون، واقتربت المدرعة كثيـراً منـا، وأحسست بقرب النهاية، أدارت المدرعـة فوهـة مـدفعها الرئيسي وبصقت حمما تناثر حول مخبئنـا، ارتفعـت قنبلـة صغيرة في الهواء واستقرت فـوق الأرض بجـوار جسـم المدرعة تماما، سكنت القنبلة كدمية طفل أفسدها، تنظر فـي

بلاهة إلى بكاء صاحبها، خيل إلي أن الدبابة ضـحكت فـي سخرية راحت تستدير في لا مبالاة مالت قليلاً علـى جنبهـا وصدر منها صوت كصوت رجل يحتضر، ثم صرخت فـي قوة، وإذا هي حطام يتصاعد منـه الشـظايا والانفجـارات المتوالية، وبعدها ران صمت هائل، أعقبه دوي مخيف.

مجموعة كاملة من عربات العـدو تنـاثرت بفعـل اصطدامها بحقول الألغام.

وكان لابد من الفرار وهذا النجاح يكفي الآن، وبدأنا في الانسحاب إلى المخابئ.

المعلومات ترد في سرعة، تعرضت خـان يـونس للقذف الجوي المركز، انسحاب القوات العربية، تمكن العدو من احتلال منطقة بالقرب من العـريش، تسـاقط الشـهداء يصعب حصره، الدمار يهدد المنطقة كلها، مخازن الـذخيرة والأسلحة معرضة للنسف الكامل أو الاستيلاء.

كان الشيخ الضرير يقول :" كلما ازدادت قوة عدوك ازدادت الفرصة أمامك لتنال منه، فقط كن سـريع الحركـة واضربه في موقع قوته واهرب، افعل ذلك كثيراً حتى ينهار كبيت قديم.."

ويسكت الشيخ الضرير ولا أحد يقول شيئًا، إنه يقول لقوم بلغاء عرفوا الحكمة أكثر منه، وأحيانًا يعلـق أحـدهم قائلاً.. كومة القش الكبيرة تحترق بعـود ثقـاب صـغير.. وأحيانًا يعلقون بكلمات من التراث، ولكنهم غالباً يذهبون إلى منازلهم لينظروا إلى مواضع فراشهم الليلي.

عدت بأفكاري إلى وجوه زملائي في المخبأ، حـان الوقت للعمل اتفقنا بسرعة، أعمال محددة صغيرة، نسف أكبر عدد من الجسور والطرق، اصطياد جنود العـدو، تخريـب مؤخرته.

وبدأنا العمل في صمت.

الذين عاشوا تلك الفترة يقولون أشياء غريبة، ولكنهم جميعا يتفقون، بعد سرد وجهات نظرهم، في أمر واحد أنـه كانت هناك كذبة كبيرة صدقها الجميع.

وخرجت مجموعتنا وفقاً للخطة، كان العدو في بداية الانتصار الخاطف الذي حققه بسرعة، سعيداً يصخب جنوده في جنون، كانت هذه فرصتنا، وراحت أيدي الرفاق تعمل في هدوء، سقط جندي أحمر الوجه في الشارع الرئيسي، وبعـده توالت الوجوه، خليط من البيض والسمر، صاح جندي أسمر

بلهجة مغربية وهو يموت.. كلاب.. لا أدري من هم الكلاب الذين يعنيهم هذا المغربي التعس.

انعزل القطاع عن اتصاله بالعالم الخارجي، ضـوء ضئيل يأتي من أجهزة الراديو، ولكنه ضوء يومض لحظـة، لتعود الظلمة مرة أخرى، خطر الموت جوع وعطش بجسـم على صدر القطاع، حياته أصبحت في قبضـة عـدوه دون رقيب.

أربكت هذه الحوادث المتتاليـة، التـي قامـت بهـا مجموعاتنا، العدو الذي كان يحسب أنه أخمد كـل مقاومـة ممكنة، فراح يقوم بحملات مسعورة للبحث عـن الفـدائيين، ينسف المنازل بسكانها دون إنذار للسكان، ويقولون بعد كـل عملية نسف لمنزل إنه أحد أوكار الفدائيين، ذبحـوا عشـرة رجال علقوهم على أبواب المنازل، ولكن كـان ذلـك دون فائدة، فقد راحت مجموعاتنا تهددهم في كل مكـان، بـل إن وحشية العدو زادت من عزم الرجال كما زادت حماسنا فـي ابتكار طرق جديدة لإقلاق جنوده.

خلت المنطقة لعسكر الفرنجة، أصبحت سيناء ميداناً للعرض العسكري، اشتبكت القوات العربيـة مـع القـوات

الإنجليزية الفرنسية في معركة مصير، شاركتنا مدن القنـاة في المحنة، عواطفي مشتتة، أتذكر شـوارع الإسـماعيلية، منزل أحبائي أسرة عم برعي، قهوة مصر وأصدقاء القهوة، اللعنة على كل الجبناء.

كان العدو قد دفع قواته عبر سيناء، في الأيام التالية. وأخذ يقيم عروضاً عسكرية ومناورات في دروب القطاع أو في طرق سيناء، وكان ذلك مفتاح الموقف لنا، وعليه بـدأنا نضع خططنا، وكمن الرجال فـي الهضـاب التـي تحـيط بالطرق، الأخبار حملت إلينا نبأ تسيير قافلة أسلحة وذخيـرة لإمداد قوات الجيش المتقدمة في جنوب سيناء.

اليهود في أرضنا المحتلة أجناس مختلفة من البشـر ويهمنا جداً جمع هذه المعلومات، وكان جنود القافلة القادمـة من اليهود الذين يطلق عليهم (الصابرا) الـذين ولـدوا فـي فلسطين، وهم ميالون إلي تقليد رعاة البقر في أفلام السـينما الأمريكية.

اقتربت القافلة من النقطة التي تم تحديدها للهجـوم، نجاح العملية يتوقف علي السرعة في الانقضاض والضـرب ودخلت القافلة بين الهضبتين، وما إن تحركت عـدة أمتـار

حتى انهال عليها أمطار النيران من كل جانب، حاول العـدو أن يتقهقر أو يتقدم في سرعة، ولكن الكمين كان محكماً، لـم يدع لهم منفذاً وتساقطوا كأوراق الشجر الجاف فـي الـزمن الخريفي.

أعقب ذلك سلسلة انفجارات من عربـات الـذخيرة، تصاعد غاز أبيض حول الانفجارات، تحول الغاز إلى اللون الرمادي، مازال الرجال يقذفون بقنـابلهم، تـزداد سلسـلة الانفجارات في القوة والسرعة، الغازات المرتفعة تشكل سحباً قاتمة، بدأت السحب في الارتفاع ويظهر خلفهـا مـدرعات العدو المحطمة في وضع بائس، نجحنا، صاح أحد الرجـال ولوح بمدفعه اخترقت رصاصة صدره، حملق لحظـة فـي الفراغ وسقط في هوة أسفل الهضبة، انطفأت شعلة الغـرور التي أوقدها الشهيد، تحرك الرجـال فـي صـمت، تفرقـوا جماعات صغيرة لابد أن الرصاصة التي أردت رفيقنا جاءت من جندي مختبئ، سمعت صوت دفعة من رشـاش، همـس الجهاز الذي معي بالإشارة المتفق عليها، وزعت رجالي وفقاً لها، انهمرت سيول الطلقات من الرشاشات، أعقبـه ظهـور بعض جنود العدو، توقف الضرب من ناحيتنا، تقـدم الجنـد

رافعي الأيدي، أشرت للرجال بالانتباه، تقدم الجند خطوتين، الغدر يأتي من أهله، انحنى الجنـد فـي سـرعة وحـاولوا الاختباء في مدرجات الهضبة، اندفعت دفعات مـن مـدافع الرجال، صرخ جندي في ألم، أسرعنا لتطهير المنطقة، تـلا ذلك سلسلة من العمليات المهمـة قبـل أن تـأتي نجـدتهم والسريعة دائماً، تدمير المدرعات الثقيلة الباقية، جمـع مـا يمكن جمعه من السلاح والذخيرة، محاولة لحصر الخسـائر، نقل جرحانا وعمليات أخرى، وبعدها انطلقنا إلى المخابئ.

فرحت كثيراً بالمجموعات الكبيرة التي حصلنا عليها من القنابل الناسفة، وصناديق الطلقـات، وعناقيـد الألغـام، وأيضا صناديق الطعام والمواد الأخرى، وحقيبة قائد القافلة.

جلست مع رفاقي لدراسة محتويـات هـذه الحقيبـة الغريبة التي حصلنا عليها بمحض الصدفة، وكانت طـائرات العدو تجوب المنطقة بحثاً عن القافلة المفقودة، وعلى صوت هدير طوفان البحث المجنون للعدو عن آثارنا، رحنـا نقـرأ بالعبرية رسالة هيئة الأركان لقائد الخط الأول.

وكان من نتائج هذه العملية الجريئة أن العـدو بـدأ حملة أكثر عنفاً وضراوة للبحث عنا، جمع الشباب في كـل

المناطق ووضعهم في معسكرات اعتقال أعدت في الخـلاء، وجمع الرجال ووضعهم في العراء، وكل فترة تأتي مجموعة من الطائرات وتمر في ارتفاع مـنخفض فـوقهم ويتسـاقط الرجال في فـزع، ويحـاول الـبعض الهـرب ولكـنهم لا يستطيعون فالجنود تطلق الرصاص للتسلية، والبعض يقـف في حيرة ولكن الجنود لا تتركه، اللعبة لعبة أشـرار يلهـون بحياة العزل.

علقوا جثث القتلى علـى الأبـواب وفـي مـداخل الحارات، أزالت الدبابات بيوتاً كثيرة، الحقد كلب مسـعور، والعالم صامت لا يتكلم، يلهو بحبل ملون مفتـول بعـروق إنسان.

ولم يمنع هذا العنف المذعور أن تخرج مجموعاتنـا لتقوم بعملياتها المعتادة، وسقط جنود العدو تحـت رصـاص القناصة، وتم نسف أمتار عديدة من شريط السـكة الحديـد وتعطلت عدة قطارات للتموين والذخيرة، وتتالت العمليات.

عندما يشعر الإنسان بأن بلاده في خطر، بل الجـزء الباقي منها يلتهمه العدو أيضا، فإن أحاسيسه تستعصي على التسجيل والملاحظة، فالإحساس يحوله إلى كتلة من اللهـب

المشتعل، ولم تعد هناك أجزاء للتفكير أو التعقل أو التـذكر، بل إحساس متقد، وهذا الإحساس يصبح يأساً كاملاً، أو مقاتلاً ثائراً، ولا موقف وسط بين الاثنين، ورغم تساقط الشهداء من فرقتنا، ورغم المذابح الوحشية التي يقيمها العدو كل يوم في الشوارع والميادين العامة، إلا أننا جميعا نتسابق للاشـتراك في العمليات، كانت الرغبة في الموت أشد من الرغبـة فـي الحياة تحت كل هذا الذل الذي يحاول العدو أن يسقيه لنا.

كانت فكرة الموت لا تراودني أبدا، كان لدي إحساس بأنني أصبحت فوق الموت، الرصاص، القنابـل، صـيحات جندي يهودي أحمق يمسك بيده مدفعاً رشاشاً يطلقه على كل شيء وأي شيء في بلاهة لا ترهبني بقدر ما أشعر بالرثـاء من أجل هذا الجندي المعتـوه، وكانـت حـوادث النسـف والتعذيب تحدث دائماً، بجواري وحولي، في تكرار عـادي عديم التأثير في نفسي، بل كنت أرثي لحال هـؤلاء الجنـد المخدرين بذبذبات عواء أجوف، وربما يرجع هذا كله إلـى الإيمان الكامل في الحق الذي أدافع عنه، والإيمان الصـادق بانتصار هذا الحق في النهاية وأن كل هذه العمليات التي يقوم

بها العدو هي نوع من العروض التاريخية التي يقـوم بهـا التاريخ مثل الوباء والقحط، والحاكم المجنون.

روى يونس تفاصيل ما شاهده وهم يقتلون أباه.

قطعوا يده اليمنى ثم سألوه عن مكاننا فلـم يجـب، قطعوا يده اليسرى، ولم يجب ًأيضا، سال دم الرجل العجوز، بكى القمر، شلال الدم المندفع من الذراع المقطوعة يلوث يد الجزار، والرجل صامت لا يجيب، قطعـوا قدمـه اليمنـى فاليسرى، مزقوا اللحم في ضراوة، سكت ولم يجب، علقـوه مثل الجمل المذبوح.

شرير ذلك الرجل الذي يتحدث عن السلام، مجنـون ذلك الذي يتحدث عن العدل، حقير ذلك الذي يتحـدث عـن الإنسانية، وملعون الذي لا يصرخ في وجـه الـرب طالبـاً العدل، يقول الشيخ الضرير:

.. العدل يأتي من فوهة البندقية، ومن حـد السـكين المرفوع والسلام في حقل مزروع بالألغام..

ويتمتم الرجال من حوله: الإنسانية في الثورة.

وفتحت الشاة فمها، وقالت:

- لماذا أنا دوماً، لم لا يكون غيري؟

الفيل أكبر حجماً، والأسد ًأيضا، بـل إن الخرتيـت والحوت وفرس النهر والتمساح وحيوانات أخرى كثيرة أكبر حجمها، وكلها حيوانات لماذا لا يذبحونها يوماً؟!

قالت حمامة تقف في خوف:

- فعلاً لماذا نحن؟

الحيوانات الرقيقة تذبح ولا تذبح الحيوانات الغليظة، لماذا؟

تذكر حكايات الشيخ الضرير يلهيني أحيانًا، أقسـمت أن أخصص عملية للانتقام من مقتل والد يونس، وتكون على مقر الحاكم، وكانت الخطة أن نتسلل إلى المدينة في الصباح، في أيدينا بطاقات المعونة، ونتجمع في المنطقة المحيطة بمقر الحاكم، نتسول ونبكي في هدوء، وطلب أحدنا رفع مظلمـة إلى الحاكم.

حاول الجند أن يطلقوا النار، ولكن كانت هناك بعثـة من وكالات الأنباء فأمر القائد بطردنا فقط، ولكنهم لم ينفذوا الأمر تركونا أمام مقر الحاكم للظهور بمظهر إنساني مزيف، تقدمت إلي أحد الجنود ودست في يده شيئًا، ابتسم في سذاجة، جاء ورائي يلهث، دست في يده مرة أخرى بعض الأمـوال،

زادت بلاهته افتضاحاً، عقدت معه صفقة، سنقدم مظلمة إلى جناب الحاكم، هذا أمر سهل للغاية، تركنا نتسول.

وجاء المساء وحل الظلام على المدينة، حظر التجول مفروض بشدة، والرقابة مشددة، وجاءت ساعة الصفر، فـي خفة وصمت تساقطت الفرقة، كقطط وحشية، على الحـراس وسقط الحراس كبالات القطن على رصيف مينـاء، قفـزت مجموعتنا الأولى إلى الداخل، اتخذت بقية المجموعات موقف الحماية والترقب.

هجمت أنا ويونس على مكتب القائد، كان يجلس في ارتخاء سحبناه قبل أن يتمكن من معرفة الخبر، وضعناه في جوال مكمم الفم مربوط الأيدي، انسحبنا بسرعة ونحن نضع كمية من المتفجرات في الحجـرة، وتسـللنا عائـدين إلـى المخابئ، وقبل أن يفيق العدو لما حدث كنا في مخابئنا نكشف الغطاء عن أسيرنا العزيز.

(١٣)

لا أدري كيف وقعت في أيديهم..

كان قد تقرر انسحابهم، بل إن بعض قواتهم كانت قد أتمت انسحابها بالفعل، لا أذكر كيف تم ذلك، كيف وقعت في الأسر، الحوادث تختلف، بالطبع، أثناء وقوعها عن وصفنا لها أو التحدث عنها، ولكني سأحاول جاهداً أن أقص كل شيء، لا، ليس كل ما حدث، بل ما أستطيع تذكره فقط، كنت أطلق النار على قوات برية متحركة، بينما تعمل مجموعات من فرقتنا في نسف مخزن معدات للعدو كانوا قد أقاموه حديثاً، ولم يكن هناك قوات كافية للحراسة، كان على تغطية الرفاق وهم يعملون.

عملية من العمليات التي قمنا بها كثيراً من قبل، نسف مخازن المهمات والذخيرة، المحاولة لتطويق العدو وحصره لعبة الفدائي، تقوم مجموعات النسف بالتسلل إلى المنطقة المحددة وتقوم باقي المجموعات بالمناوشة والتغطية في حالة الضرورة، لم يكن في ذلك شيء غريب أو شاذ، عملية مثل كل العمليات.

مضت الخطة، في تلك الليلة، كما وضعناها من قبل، مجموعات النسف تسللت إلى المواقـع، تقـف فـي حالـة استصدار وانتباه، في انتظار إشارة العمل، ولكـن، فجـأة، ظهرت قوات العدو تزحف نحونا، كثيفـة العـدد والعتـاد، راحت تطلق نيرانها بعنف وبسرعة، وكأنهـا، لضخـامتها واندفاعها السريع، صخرة اندفعت بعد انفصالها من الجبـل، تهوي في قوة اندفاع رهيبة نحو الوادي، واليهـود، دائمـاً، هكذا في هجومهم، يتحركون بسرعة رهيبة، ويطلقون فـي قوة، ذلك اندفاع الخائف أبدا وجبنه، سقط اثنان من حـولي، ارتميت بسرعة على حافة التل، وتدحرجت إلى أسفل، كانت هناك عربة مدرعة تتقدم في أول الطابور، الحـوادث تأخـذ وقتاً أطول في روايتها، أكثر مما تأخذه في واقعها، العربـة مندفعة وخلفها رهط من العربات المصفحة الخفيفة الحركـة، جذبت قنبلة من حزامي، قضمت في غيظ أمانهـا، قـذفتها، شهقت العربة ومالت على جنبها، دارت دورة وانفجر لهـب مجنون من داخلها، قفز بعض الجنود وهم يصـيحون فـي وحشية، كنت قد مللت هذا الصراخ الحيواني الـذي يطلقـه

الجنود وهم يهاجمون، دفعات من الرشاش، سريعة حقـود، سكتت صرخاتهم إلى الأبد.

دوى انفجار مخزن معدات العدو، نجحت العمليـة، انضمت قوات النسف إلينا، العدو يهاجم في كثافـة وقـوة، الرغبة في الهرب من الحصار تشدني، ولكن نوعاً آخر من الرغبات استولي على وجداني، دائماً نحن لا نهاجم، نـدافع ونهرب، ما الذي يحدث لو أننا الليلة نهاجم، عددنا قليـل ولا يقارن بعددهم ومدرعاتهم، لا يهم، معركة حقيقية واحدة بيننا وبينهم، بعدها ينتهي كل شيء، معركة تقنع ذلـك الجنـدي القادم من حارات باريس ولندن بأنه من الأصوب العودة إلى موطنه بدلاً من اغتصاب موطن الآخرين، معركـة واحـدة نخوضها في الدفاع أرعن نحو الموت، لأن الشيخ الضـرير كان يقول:

- من الرغبة في الموت، تأتي الحياة، ولأن..

سقطت مجموعات من القنابل بجوارنا ولم تنفجـر، العدو لا يهاجم فقط بسربه الهائل مـن الإوز المـدرع، بـل يهاجم بوسائل أخرى، أشرت على الرجـال بالتسـلل مـن الحصار، مخابئ الأرض يعرفونها، زحف الرجال وتسـللوا

عبر الأنفاق، بقيت أنا وخمسة من الأفراد لتغطيـة التسـلل، رحنا نطلق النار على القوات المتقدمة، وقنابلنا تنهـال دون ملل، تصيب مرة وتفشل مرات أخرى، ولكن تمكن الرجـال من الانسحاب جميعا.

علينا نحن أن ندبر وسيلة للهـرب مـن الحصـار، أشرت لثلاثة أن يتقدموا في سمت عبر ممر كان بين تلـين، فإذا ما عبروا، وتمركزوا في الجانب الآخر، راحوا يقـذفون العدو بمجموعة من القنابل، حتى نمر نحن ًأيضا، ولا يبقـى بعد ذلك إلا مغامرة متابعة الزحف تحت وابل المدفعية.

المعارك، دائماً، رهيبة، سواء كان السلاح المستعمل فيها قنابل أو صواريخ، مدافع ثقيلة أو خفيفة، طوب وحجارة أو بعض العصي، رماح أو سيوف، فهي دائماً رهيبة، لأنهـا أخيرا، ومهما اختلفت الأسلحة المستعملة، تعني انتهاء الحياة، تعني الموت، قطعة من شظية قنبلة، تندفع ساخنة إلى الصدر لا تحدث ألماً بل نوعا من الخدر اللذيـذ يعقبـه اللاشـيء، رصاصة من بندقية تركية عتيقة، تدخل في نفس المكان تثير خلفها كومة من الدخان، ثم اللاشيء ًأيضا، وهكـذا ضـربة حجر على الرأس، تسلل سكين أو خنجـر إلـى مجموعـة

الخلايا الهشة الطرية التي يتكون منها ذلك الكائن البشـري القريب، وبعدها الموت.

تحرك واضرب، تأكد أن في داخلك وحشـاً أكثـر شراسة من كل الكائنات الحية، تمركزنا خاف التل الكبيـر، قنابل العدد تنهمر كماء المطر في ليلة شـتاء رأس السـنة، قنابلنا نفدت، السيل الرفيع من الرصاص الملتهب المندفع من مدافعنا الرشاشة لا يصل إلي صدور أعدائنا، لا فائدة منـه، ولكنه يعطي نوعاً من الأمان، اضرب وهذا يكفي، أصـبحنا أربعة، سقط شهيدان، قنابل الغاز والدخان تصل إلى مخابئنا، وقعنا في مصيدة الفأر، الموت الملعون هـو مـوت الجـب المخنوق، اضرب واخرج من الجب، خرجنا تسلقنا مرتفعـاً وتدحرجنا ثانية، هواء جديد أنعش القلب قليلاً تـذكرت فتـاة جميلة كانت تسكن في ميدان سعيد في الإسماعيلية، عيونهـا لهب حارق، ترسلها إلى قلبي، أصرخ من ألـم اللـذة فـي صدري، أرغب في امتصاص شفتها السفلي، استحلب منهـا رحيق الجسد الناعم البشرة، جميلة تلك الفتاة، كانت تدعي.. لا أذكر، ربما جميلة، ربما قمر الزمان، ربما دينـا، ربمـا رجاء، لا يهم الاسـم، الرسـم أظـرف، لكزنـي رفيقـي،

الرصاص نفد، لا يهم، اضرب، لو عادت الأيام وعدت إلـى ميدان سعيد باشا، لذهبت إلى ذات العيون الذهبية، وبادلتهـا الحب علانية في الميدان، ورقصت معهـا حـول التمثـال الأخرس، وقصصت عليها أكاذيب العشاق، جذبني رفيقـي، ولكني لا أستطيع التحرك، سـمعت نـداءات مـن حـولي، أصوات رفقائي، أحبائي في الميدان، مد لي يدك يا يونس، لا تتركني أذهب، أحبائي إنني أهبط إلى أسفل، أدخل في بئـر سحيقة مظلمة، أسمع مئات الهمسات الحائرة، أصوات أحبها، تنادي، أحاول أن أمد يدي، أن أقف، أن أصرخ، لا أستطيع.

فحيح أفعى، عواء ذئب، والجو بارد، أشعر به فـي أطرافي كثيراً، حلقي جاف، تشابكت المرئيات والأصـوات، امتزجت، تحولت إلي صوت واحد لرجل يقول:

- الويل لك.

حاولت أن أتبين مصدر الصوت، ولكني لـم أقـدر على الحركة كانت جدران البئر المليئة بالطحالـب اللازجـة تمنعني من الحركة، ورجل يعوي كـذئب مصـاب، ودودة تسير فوق أهداب عيني، تتراقص، تتلاعـب فـي رشـاقة، تتمايل، كادت تسقط في قاع العين، تمالكت نفسها واحتفظـت

بتوازنها، اقتربت قطعة شرسة من الدودة، نظرت إليها فـي حذر، ثم اقتربت منها، لاكت فمهـا بلسـانها فـي شـراهة متحفزة، رفعت يدها وأرادت أن تقبض على الدودة، فشـلت وإن غرز مخلبها في جفوني، حاولت القطة أن تسحبه ولكنها فشلت أيضاً، ضحكت الدودة وراحت ترقص فـوق مخالـب القطة، فوق المخلب الأسير في جفوني، القطة تبكي من الألم، الرجل هناك يصيح، يصرخ على رجل آخر أخرس، جـذبت القطة يدها بقوة، خرجت اليد بدون مخالب، بقـي المخلـب مقطوعاً في جفن العين، سمعت صـوتاً يـأمرني بالحركـة تحركت، سرت على قدمي شعرت أن جسمي يميـل قلـيلاً، حاولت أن أحرك يدي لأحفظ توازني، ولكن الصوت أمرني بالكف عن الحركة والسير في صمت، حاولـت أن أحـرك أصابعي، شعرت بألم هائل في نصف رأسـي وكـأن شـيئًا يتمزق داخل عقلي، لم تستجب أصابعي للأمر، كففـت عـن المحاولة، وهدأ الألم بعض الشيء.

تغيرت الأرض من تحتي، شعرت أنني أسير علـى أرض صلبة، وبعد قليل اصطدمت قدمي بدرجة سلم، صاح صوت:

- قف.

وقفت، أردت أن أفتح عيني بقوة، ولكني لم أر سوى ظلام وسادت روح اليأس في نفسي، كنت أود فقط أن أعرف من أنا أو ماذا أفعل؟ ولكن دون جدوى، أمـر الصـوت أن نصعد سلماً، وبدأنا نرتقي السلم، بضع درجـات بصـعوبة بالغة، ثم أمرنا الصوت بالسير يميناً، وبعد عـدة خطـوات أمرنا بالسير يساراً، وخطوت أربع خطوات، خيل إلي أننـي أدخل سرداباً، وخيل إلي أن هناك باباً أغلـق وأن هنـاك أصواتاً غريبة، تعثرت قدمي في شيء ما وسـقطت علـى الأرض، سرت في بدني برودة شديدة، كأن الأرض مغطـاة بالجليد، ومر وقت وأنا لا أعرف أين أنا، والألم يمزق رأسي وانحدر إلى أحشائي، يدي مخدرة في ألم أبدي، عقلي يـدور في فراغ، وتتلاحم صور خبيثة، ولا أستطيع التفكيـر فـي شيء، وكلما حاولت تركيز تفكيري تسرب، تحت ضغط الألم الهائل، إلى تخيلات مبهمة.

لا أدري لماذا امتلأ خيالي بالثعابين والحيات والذئاب وأفراس النهر والكلاب المتوحشة وحيوانات لا شـكل لهـا، ورءوس مقطوعة، وقطع من الجبن، وزجاجات ماء، وقرص

شمس يجري على الأرض يتدحرج على التل ثم يسقط فـي بئر، فتظلم الدنيا تماما، ويأتي كلب أجرب يحمل فـي فمـه لقمة، لو أنه أعطاني قطعة.

السماء لونها أخضر وعلى حوافها أشـجار الفـول الأخضر تتدلى قرونه ملأى بالحبوب، واستطال جسدي حتى لمس السماء.. ولكن قرون الفول تفتحت وسقطت منها حبات الفول، حاولت أن أعود بجسدي من السـماء ولكنـه ظـل يستطيل إلى أعلى.

سمعت بابا يفتح، وأقدام البعض تدق الأرض بعنـف وداروا حولي، ثم عادوا وعاد الباب يغلق من جديد، وبعدها لا أدري كم مكثت في هذه الحالة، لا أذكر شـيئًا ولا أريـد، وكلما حاولت التذكر أحسست بألم هائل في رأسـي، ودوار، كل ما أذكره أن الألم كان رهيباً.. نوع من الانحلال يدب في جسمي، مئات الديدان والسوس تأكل في أحشائي، مئات مـن الخيالات المزعجة، وكأن آلافاً مـن الأفـاعي تهـاجمني، واقترب أسد كسيح يسير على مساند خشـبية ذات عجـلات صغيرة، واقترب حتى لامست أنفاسه وجهي ثم مد يده وأخذ قطعة من لحم كتفي، وأكلها، ونظرت فإذا عظم كتفي بـارز

عار، وبعدها أخذ قطعة أخرى من الكتف الثانية ثم اقتـرب من الرأس وقضمها، تدحرجت الرأس داخل فمه ثم أحسست بألم هائل، وبعدها لم أعد أشعر بشيء.

تقدم الرجل ورفع الرباط عن عيني، فـزاد الألـم، وبدت عيني كأنهما ملتصقتان ولا يمكن فتحهمـا، وشـعرت بالنور يتسلل إلى وجهي، ورأيت أسلاكاً من الوهج ونقطًا من الضوء، ثم غطى المكان لهب أحمر، وبعدها، اسـتطعت أن أرى ما حولي، حجرة كئيبة، بعض المقاعد الخشبية، لا توجد نوافذ، أمامي مائدة، ورجل يبدو طيباً، سـميناً إلـي درجـة الترهل، أبيض الوجه، تقدم مني وقال:

- لقد أنقذناك من الموت.

ودهشت، وراحت آلاف الأسئلة تطوف برأسي، من أنا؟ ومن يكون هذا الرجل؟ وأين أنا؟ ومـن هـؤلاء الـذين أنقذوني وكيف؟

عاد الرجل السمين، يقول:

- تركك زملاؤك لتموت وهربوا..

- تركك زملاؤك لتموت وهربوا..

نظرت إلى الرجل الأبيض السمين إلى درجة الترهل في دهشة، ولكنه قال في إصرار:

- لقد خانوك.

زملائي!! واصل الرجل حديثه في حنان ظاهري:

- كم عمرك؟ أنك تبدو في مثل عمر ابنـي، تمامـا مثل عمر ابني، إنه يعمل أستاذاً..

شعرت بأنني في حاجة للحديث، مجرد رغبة في أن أحرك لساني فسألته:

- ابنك من؟

ابتسم الرجل، وتناول علبة البسكويت وفتحهـا فـي هدوء ثم أخذ واحدة وراح يقضمها، في رقة وتلذذ، أصـدر فمه صوتاً خشناً، ابتلعها وقال:

- ابني (سام)، إنه يعمل أستاذاً في أكبـر جامعـات أمريكا وانتدب أخيرا مستشاراً في البيت الأبيض.

الكلمات فقدت مدلولها الحقيقي، تحركات شفاة هـذا الرجل السمين ترسم لوحة بلهاء، الأمور غريبة، متشـابكة، تبدو عسيرة الفهم، واصل الرجل قضم قطع البسكويت..

- تصور أن الرئيس لا يفعل شيئًا قبل أن يستشيره؟!

أنا لا يهمني ابنه ولا رئيسه، لا البيت الأبـيض ولا من يسكن البيت الأبيض، الذي يهمني أن أعرف مـن هـذا الرجل؟ بل من أنا؟ انتابني أشد حالات الهياج الداخلي، أريد أن أحدد موقفي وموقف هذا الرجل السمين، ولكنـي أشـعر بالإرهاق والألم، ولا أقدر على التفكير، عاد الرجل يقول:

- كانت حفلة رائعة، حضرها مندوب الملك وكثيـر من الشخصيات الهامة.

وضحك في سعادة وفخر، انتهى من علبة البسكويت وقذف بالورق الفارغ، وقال وهو يهدهد بطنه المتدلية:

- كان الطعام بكميات هائلة..

أحسست بلهفة شديدة للطعام، كنت جائعاً، بل أكـاد أموت من الجوع، قلت صائحاً:

- أنا جائع.

وكأنه لم يسمع ما قلت، واصل حديثـه فـي نفـس الحماس والسعادة..

- والشراب ًأيضا، الطعام والشراب، كميات هائلـة بدون حساب، إن دولتنا تملك كل شيء الطعـام والشـراب والحب..

أخفض الرجل صوته، وسألني:

- هل أقول لك سراً؟

قلت في ضعف:

- ولكني جائع.

اقترب مني وهمس في أذني قائلاً:

- لقد كان مندوب الملك هنا ليتفاوض معنا بشأن ما ترسله دولتنا من الطعام.. وأشياء أخرى..

لقمة واحدة فقط أرجوكم، لقد نسيت آخر مرة أكلت فيها، ربما لم أكن من قبل أشعر برغبتي في الطعام، ولكني الآن جائع وكأن وحشاً في أمعائي يأكلها، لو أنني تمكنت من لقمة واحدة.

عاد الرجل يهمس في أذني:

- إنه ملك المسلمين وطاعته واجبة على كل مسلم لأنه ولي الأمر، أنا شخصياً أطيعه ومن أجل هذا..

صمت الرجل وراح يعبث في أدراج المائدة، ثم تناول علبة بسكويت أخرى، ومد يده ليقدمها لي وهو يقول:

- أنت مثل ابني، ولن أدعهم يذبحوك، وسأدافع عنك.

أخذت علبة البسكويت، وبدأت أتناول واحدة، ولكـن جنديان جاءا وأخذاني إلى غرفة صغيرة دون أن آكل شيئًا.

يبدو أنها نفس المكان الذي كنت فيه من قبل، ولأول مرة أرى المكان حجرة صغيرة قذرة للغاية بها ماء يرتفـع ويغطي القدم، نافذة ضيقة في أعلا الجدار، تركنـي الجنـود وأغلقوا الباب.

تخبطت في الجدار أثر دفع أحد الجنود لي وهو يغلق الباب، ترنحت قليلاً ثم سقطت على الأرض، حاولت أن أقف ولم أستطع، نظرت فإذا بيدي اليمنـى مقطوعـة، الحقيقـة الرهيبة غطت على عقلي..

يدي اليمنى مقطوعة..

يدي اليمنى قطعوها الكلاب، وأسـير فـي معتقـل مخنوق حقائق الموقف مثل شهب الليل، الأشياء أكثر حرارة حينما تعرفها، الأمور بدأت تتضـح الآن، تبخـرت سـحب الدخان، ظهر الرجل السمين الحنون المظهر مثل حية رقطاء جميلة المظهر، مميتة السم، ملعون ذلك الجبان.

الجوع يحط من قدر الإنسان، يجعله حيوانًا يتشـمم رائحة عفن الخبز، والحجرة قذرة ضيقة، حاولت الحركـة،

تذكرت يدي، يدي اليمنى حيث مقتل الرجل، يحمل سـلاحه وخبزه، تصله بالعالم تربطه بما حوله، يعيش بها، كيف يقاتل عنترة بدون سيف؟ لأن السيف تحمله قبضة رجل، والقبضة ضاعت، والويل لك يا عنترة، الويل لك من الكلاب!.

حاولت أن أصرخ، ولكني لم أقدر، والجوع يـنهش أمعائي وددت لو أحطم رأسي في الحائط، أرقد على الأرض في الماء القذر، ألصق بطني بالجدار ناظراً إلى السقف، لو.. ولكنني لم أتحرك، ظللت جالساً في بلاهة،، ولا أدري كم مر علي من الوقت على هذه الحالة.

ومرة أخرى أخذوني حيث يوجد الرجـل السـمين، وأجلسوني أمامه، ران صمت طويل قطعة الرجل فجأة وهو يقول:

- نحن نساعدكم

-..

- تبدو هادئاً اليوم، هل نمت جيدا؟

-.....

- يبدو ذلك، ولكن..

كنت أنتظر أن يعطيني علبة البسكويت، ولكنه وقف بجسده المترهل ومال على المائدة وقال هامساً:

- إنهم دائماً يطلبون لحوماً وألباناً معلبـة وأشـياء أخرى كثيرة جداً، ونحن نرسل لهم كل شيء، نحن معكم.

-...

- ألا ترى ذلك؟

-..

- حسناً يا بني، لقد قلت لهم أنك شاب طيب، كنـت على حق في ذلك، تبدو عليك الطيبة بالفعل وستفعل ما يطلب منك تماما، أليس هذا صحيحاً؟

-...

- نعم، ماذا تقول؟ بالفعل أنت على حـق، يبـدو أن الفترة الطويلة التي قضيتها هنا، وخاصـة فتـرة مرضـك، جعلتك جاهلاً بما حدث ولم تعلم بتطور الأمور.

-...

- أبدا لقد انتهى الأمر، أصبحنا أصدقاء الآن، أحباء، أولاد عم، نساعدكم، فنحن كما تعلم أكثر تطوراً وعلماً، كما إننا أولاد عم، أليس كذلك؟

- ...

- بالفعل، والآن قل لي يا بنـي، مـا عـددكم فـي سوريا؟ أقصد كم كان عددكم..؟

عبث بالصندوق المليء بالبسـكويت أمـام عينـي، تظاهرت بالعمى، أقراص البسكويت المستديرة تتدحرج أمام عيني، تمثل لي طبقاً من الطعام الشهي، قلت أجرب استخدام فمي في الحديث:

- لا أعرف. من تقصد؟

- المخربون..

- لا أعرف.

ابتسم في سعادة، والتهم في لقمة واحدة مجموعة من أقراص البسكويت، ملعون هذا الرجل السمين، أنني أحب أن ألهو بعينيه، أضع أصبعي في بلعومه، طافـت فـي رأسـي ذكرى أحد الرفاق، كان شهماً وجريئاً، وكان يقول، دائمـاً، كلمات ليست لها معنى، ولكنه كان بطلاً في المعركـة، ولا يتكلم..

ابتسم الرجل السمين في خبث، وقال:

- لا يهم، لم يعد الأمر مهماً الآن، لم نعد أعداء

وضع علبة البسكويت في جيبه، وقال:

- أنت متعب الآن، يجب أن تستريح.

أعادوني إلي الغرفة اللعينة، والجوع يهزني، يهز آدميتي، ولكني أصبحت أكثر ثباتاً الآن، تيقنت من وجودي بدأت أفهم أشياء لم أكن أفهمها من قبل، وفكرت في طريقة للخلاص.

***

(١٤)

بدأت أشعة الفجر تـدخل مـن النافـذة الصـغيرة، وعصفور يشقشق في مرح يقف علي حرف النافذة برهة ثم يطير إلى الفضاء، وأشعر أنه لا يعود، وتمضـي اللحظـات وأنا في انتظاره، إنه كائن حر طليق يغني بحريـة، ويعـود العصفور ثانية يلعب معي لعبة الترقب والانتظار، يطير إلى الفضاء لحظات ويعود ليقف لحظات أخرى فوق النافذة يغرد لحناً عصفورياً متقطعاً، ربما يغني للسـماء، وربمـا يغنـي لمحبوبته، وربما لا يغني، يبكي، نعم إنه يبكي، هـذا جـائز جداً، فالعصافير، لكونها كائنات رقيقة ضعيفة، فهـي دائمـاً مهددة بخطر ما، ولا شك أنها خائفة دائمـاً، هلعـة دائمـاً، والخائف لا يغني إنما يبكي، هذا أكثر اتسـاقاً مـع وضـع العصافير.

العصفور يغني، يغرد، يبكي وهذا محتمل، أفكر في اللاشيء، العالم قد انتهى، وصار ما حولي عدماً، المـوت لا معنى له، يدي المبتورة صارت مثل عود حطب جاف ولـم تعد قادرة على فعل شيء، لم أعد أهـتم بمـا يجـري فـي الخارج، أعتقد أنهم أغبياء لأنهم يحتفظون بي، لست ذا نفـع

لهم بل أكلفهم نفقات الحراسة ورغيف الخبز وكـوب المـاء اليومي، حتى هياجي تخليت عنه، فقد معناه، لم يعد يهم أحداً، الرجل السمين لم يعد يقابلني ويقص علي ما جري مع الملك وعن ابنه ميمون الطالع المستشار في البيت الأبيض، ويبـدو أنه نسي وجودي ولم أعد ذا أهمية.

كانوا في الأيام السابقة، لا أذكر تحديدها ولا أريـد، يأتون ويسألون ويقولون كلاماً، وأنا أصرخ وأصيح وأهتـز في عصبية من لذعات الحقن وأسلاك الكهرباء، ثم أعود إلى غرفتي، غرفة الأسر، مهيض الجناح جائعاً وبي رغبة فـي القيء، وجرح يدي يعذبني.

ويأتون في اليوم التالي ويسألون، يعطـونني شـراباً مراً، ينعشني الشراب ويجعلني أتذكر أشياء كثيرة، ويسألون، وأشعر بالرغبة في الإجابة، وينبض قلبي بشدة، ويظهر فـي الأفق البعيد، بشارة رفيقي في عملية نسف أبـراج محطـة الكهرباء، ويسقط بشارة قل شيئًا، هل أنت.. ذهـب بشـارة، صعد إلى السماء، جلس مع الرب، قصة الشـهيد الموجـود أبدا، لا، بشارة قف تكلم، لا تتركني، ما هذا الذي تقوله يـا رجل، ستعود معنا، جريحاً وستشفي هنـاك فـي المغـارة،

ويصيبني الدوار، لا أريد أن أتكلم، لا أريد، ويحقنونني بمادة زرقاء اللون، أشعر بالألم يمزق نصف رأسي، لا لن أتكلـم عرفت معنى المقاومة، مهما تعددت هذه الحقن والأشربة لن تقدروا على الوصول إلى ذلك المكان من العقـل البشـري، وأقاوم كل شيء، حتى الذكريات، حينما تطفو علـى سـطح عقلي، أرفضها، والعرق يبلـل جبهتـي، ولسـاني جـاف، والعذاب ليس له مقياس، وكلما ازداد العذاب كلمـا تضـاءل الإحساس به.

جاءوا برجل وقالوا: هذا طبيب دعه يراك..

نظر إلي الطبيب، وقال:

- كلب.

وأنت ًأيضا، قلت ذلك في نفسي، كنت أود أن أسبه، راح يعمل في ذراعي في صمت، أضاف إلي آلامي بعضـا آخر لمدة من الوقت، بعدها أحسست براحة بعد ذلك ولم يعد يفوح منها رائحة نتنة.

أصبحت على علم كبير بتاثير هذه الأشربة والحقن، كنت أحيانًا أنتظرها، أنتظر أخذها، رغم ما تسببه لـي مـن آلام رهيبة، بفارغ الصبر، ويتحول الألم لذة، لذة الألم نفسه،

وربما لذة العناد، يبدو أن هناك نوعاً من التقارب نشـأ فـي نفسي بين المقاومة وتأثير هذه الأنواع من الحقن والأشـربة، وخلق هذا نوعاً من اللذة.

وفي ذات يوم قادني جندي إلى خارج الغرفة، ثم إلى خارج المبنى كله، شعرت بنوع مـن الخـوف، وأحسسـت ببرودة في أطرافي، تصورت مقصلة ثورة باريس، قطعة من الصلب تسقط فجأة على العنـق تمامـا، تنفصـل الأشـياء، ويتحول الكل إلى العديد من الأجزاء، وتحول الجـزء إلـى العديد من الخلايا المليونية، وتتحـول الخلايـا إلـى ذرات كربونية غير مرئية، تندثر الأشياء وتصير النهاية، النهايـة للشكل الواحد، ليبدأ من جديد شكل آخر. ركبنا سيارة زرقاء، عرفت تراب بلادي، أحسست بنشوة جددت الدماء في وجهي، توارى الخوف، عادت الأجزاء إلى واحـد، رأيـت شـجر الزيتون، انبثق داخلي غناء قديم، بلادي، أرضـي، وكلمـات أخرى تدفقت عبر الأذن مندفعة من ماضي لا أذكره جيـدا، ولكني أحمله، لكزني جندي بجـواري، انسـحق الماضـي وانقطع الغناء، الجندي يلوك شيئًا في فمه، لعنته، لم تخـرج

اللعنة عن حدود الحلقوم، وضع على عيني عصابة سـوداء، اختلطت الأشكال وصارت لهباً مجنون الألوان.

مرت ساعة أو يزيد، وتوقفـت السـيارة، أمرونـا بالنزول، قادوني إلى مبنى، أحسست بجدرانه قبـل أن أراه، سمعت صوتي ينطلق دون إرادتي، وسألت:

- أين أنا؟

رجع الصوت دون جواب، رفعوا العصابة عن عيني وتدفق النور الخجول، سيدات في رداء أبـيض، وجـوههن بيضاء، حقاً الذي يغير شكل المرأة هو ذلك العالم الغريـب الذي تخلقه حولها نظرات الرجال، اقتربت إحداهن وغرزت في ساعدي حقنة، يدها ناعمة الملمـس، رقيقـة، اسـتدارت وتركتني أريح نظراتي المتعبة على ظهرها، انزلقت نظراتي حتى لامست الأرداف، جميلة تلك الخلفية لامـرأة صـغيرة، تكورت الأرداف وانفلتت هاربة داخـل حجـرة وسـقطت نظراتي على أرض المكان، مستطيلات بلهاء مـن الـبلاد، مسطح من الصمت الأحمر لا معنى لـه، بجـواره مسـاحة أخرى من اللون الأسود المزيف، انفتح الباب وتقـدم منـي رجل نحيف طويل القامة، تفحصني باهتمام لحظة وذهـب،

عادت المرأة الأولى، وعادت نظراتي تتصفح الوجه الأبيض، لا أذكر منذ متى رأيت النساء، لاشك أن هذه المرأة الصغيرة الدقيقة الملامح جميلة، راعني الصدر البارز فـي تواضـع، سقطت نظراتي فجأة في منطقة ما تحت الوسط، كانت المرأة تضع على رأسي بعض الأسلاك، لم يكن بيني وبين استدارة تلك المنطقة سوى بضعة سنتيمترات، لـم تسـتطع تثبيـت الأسلاك جيدا، اقتربت أكثر ولم أستطع التنفس، انغرز أنفـي في المنطقة اللينة من أسفل بطنها، خنقتني اللـذة، تألمـت، شعرت أنه لا فرق بين اللذة والألـم، الأمـر يبـدو نسـبياً، ازدادت المرأة اقتراباً وانهماكاً فيما تفعله، ازداد لدي الشعور بالاختناق، حرارة جسدها مرتفعة، تصـبب منـي العـرق بغزارة، وأخيرا تحررت، ابتعدت المرأة، واستدارت، كنـت مشغولاً بحريتي، أخذت أتنفس بحرية وفكرت في الوقـوف، شدتني الأسلاك المثبتة في قسوة، وتركت هذه المحاولة ألمـاً هائلاً في رأسي، لقد قيدتني هذه المرأة الملعونة.

أحاطوني وراحوا يمطرونني بأسئلة لا معنى لها، لم أجب كانت تجربة المرأة سبباً في ذلك، سـجلوا اهتـزازات الأسلاك وأعطوني مزيداً من الحقن، ولكني لم أتكلم، وكانت

لعبة الصمت هذه تعجبني وتعطيني بعض السعادة الممزوجة بالألم.

وعدنا في ذلك اليوم بنفس السيارة، وبعدها لم يسألني أحد وتتكرر صورة كل يوم، يأتي الجندي في الصباح ويقذف إلي برغيف خبز أسود ويضع كوباً من الماء بجوار البـاب وهو خائف ومرتبك وينظر إلي في ريبة وحذر، ثم لا يعـود إلا في اليوم التالي وكان هذا الجندي هو الشـخص الوحيـد الذي أراه، وأنظر إلي عينيه أجده حزيناً خائفاً دائمـاً وكـأن هناك ما يحزنه دائماً ويخاف منه، تكسو ملامحـه علامـات الحزن القاسي، داخلني نوع من الشفقة عليه، وراودتني نفسي أن أسأله عما به، ولكني لم أفعل، كنت كسولاً.

في أحد الأيام تقدم الجندي من الباب ليضـع كـوب الماء، ولكنه تعثر فسقط الكوب من يده وسال المـاء علـى الأرض، بدت ملامحه وهو ساقط على الأرض مثـل حبـة تفاح فاسدة، متقلصة مذعورة خائفة، نظرت إليه وأنا قابع في ركن الزنزانة في إشفاق، لم تكن بي رغبة للسخرية منه، قام الجندي في ارتباك وهو يلعن كل الأشياء، ثـم حملـق فـي

وجهي، بعد أن وقف، وقذفني بـالرغيف الأسـود وبصـاقه وأغلق الباب بسرعة واختفى.

ظللت طوال اليوم بدون ماء، جلست أمضـغ قطـع الخبز في بلادة وخمول، خيل إلي أنني تحولت إلـى بقـرة، والجسد يترهل، والأصابع تتحد وتتثاقل، وتتحول إلى حوافز خشنة لبقرة عجوز، رقدت على الأرض وأخذت أحك أذنـي بحوافري الخليفة وأهش الذباب بذيلي، وسيل مـن اللعـاب ينساب على صدري، صدر البقرة، ورائحة عفنة تفوح مـن الأرض.

وعاد الجندي في اليوم التالي، قذفني برغيف الخبـز اليومي، وقال:

- أنا لم أر من هو أغبى منك!

ولكوني بقرة لم أرد عليه، تمددت على راحتي على أرض الحظيرة، قال الجندي في حدة:

- لماذا لم يقتلـوك حتـى الآن؟ أو تقتـل نفسـك فتريحني؟

وتصورت عدة طلقات من رصاص مسـدس جيـب صغير تشق الهواء لتستقر في صدري، أو حبلاً غليظاً يلتف

حول رقبتي ويضيق ثم يضيق حتى أموت، ولكني لم أتحرك ولم أجب بشيء، اغتاظ الجندي من نفسه، وسكب الماء بقدمه أمامي وهو يقول:

- سأحرمك اليوم أيضا من الماء.

وانصرف بغضب، نظرت إلى الماء المسكوب في لا مبالاة، غير مهم لست راغباً في الشرب ولا أشعر بالعطش، بعد قليل ستمطر السماء وتملأ الأرض أنهاراً من ماء السماء العسلي المقدس، وجلست في انتظار مطر السماء.

حينما جاء الليل أحسست أنني أختنق وأود الـتخلص من جسدي، تلهفت على نقطة ماء واحدة، وودت لو أننـي أصرخ في ضمير ذلك الجندي الحزين أبدا، ولكني تراجعت فلن يسمع ندائي أحد، لأنه هنا لا يوجد ضـمير، لا يوجـد، القحط في داخل النفوس وخارجها، انفجر داخلـي شـريان الإنسان المعذب، وحيداً تأكله نيـران الرغبـات الحيوانيـة لحيوان الغاب المجروح، وامتلأ الجو حـولي بفقعـات مـن ضباب، وقطرات من الندي، رحت ألهث وأنا أحاول امتلاك نقطة واحدة، ولكن القطرات تتساقط في كفي لتنزلق سـريعاً على الأرض، أفتح فمي وأرفع رأسي، ولكن لا فائدة لا مـن

نقطة واحدة تسقط فيه، اندفع محنياً على الأرض ولكنها جافة خشنة تزيد من التهاب لساني، وقطرات الماء تـزداد حتـى تصبح سيلاً منهمراً، وأدور بجسدي في محاولـة للحصـول على بعض هذا السيل، ولكن لا فائدة، لا يدي ولا فمي، ولا أية وسيلة يمكنني بها الإمساك بنقطة ماء واحدة.

كل شيء ينقضي، يمر ويذهب، الدائرة لهـا نقطـة نهاية، هكذا يقول الفلاسفة، ليس هكذا تماما، ولكنهم يقولـون ما يشبه ذلك، وانقضى الليل، وجاء الصباح، وكنـت أحيانًـا أعتقد أن الصباح لن يأتي أبدا، وجاء الصباح ودخل الجندي في حذر، كان في نيتي أن أقتله، أن أهجم عليه وأمتص دمه، وضع الرغيف اليومي الأسود اللون والطـالع وضـعه فـي صمت وترقب، أحجمت عن التعرض له، كانت البقرة، تخيل أنني بقرة، استولي علي مرة أخرى، نظرت إليه، فقط، فـي غضب، أغلق الباب بعنف وهرب.

ومضت عدة أيام وكان يأتي في صمت وينصـرف في صمت، ينظر كل منا إلى الآخر في شراسة وحذر، أحيانًا كان يبدو عليه أنه إنسان مثلي وضع في مكان غير مناسـب وأنه يود أن يجلس في استرخاء على وسادة ويمـدد قدميـه،

ويدخن غليونه، أو يشرب كوباً من الشاي، ويضـحك وهـو يداعب أحد الغلمان، وأحيانًا أتصوره قرداً يتصـرف تبعـاً لأوامر سيده، العب يا ميمون، يلعب الميمون، كيـف تنـام العجوز، حسناً هكذا، أرنا كيف يكون العاشـق؟ العـب يـا ميمون، أرنا كيف تقتل كيف تسرق كيف تغتال؟ وأيضا كيف تكذب؟

عظيم يا ميمون، أحسنت دورك، أرنا كيـف يأكـل الكلاب؟ ويلعب الميمون، لا يفهم ولا يريد أن يفهـم لمـاذا يلعب ولماذا لا يلعب سيده أيضا؟

في الصباح، صباح أحد الأيام، قال الجندي:

- اسمع يا هذا، سوف أستريح من وجهك القذر، لقد أمروا بنقلي إلي معسكر آخر.

قلت في ضيق:

- لابد أن هذا راجع إلى سوء سلوكك.

انتفض في غضب ثائر، رفع بندقيته وضربني بشدة، أصابت الضربة كتفي، أيقظتني، دفعت جسدي بعيدا، اشتدت ثورته ودفعني في صدري بكعب البندقية عدة مرات، سقطت على الأرض لاهث الأنفاس، حاول أن يدوسني بقدمه، لمعت

أربطة الحذاء أمام عيني، تذكرت، نقطة ماء من هذا الإبليس، جذبت القدم بفمي، سقط مثل عود الحطب، وضعت قدمي اليسرى على فكه وضغطت، انتفض جسدي بشدة، جذبت البندقية بيدي السليمة، اصطدمت رأسه بالأرض الصلبة، تقلصت عضلاته في تشنج زدت من ضغط قدمي، هدأ جسده، وحينما رفعت قدمي كان قد مات.

في لحظة كنت قد استبدلت ملابسه بملابسي، انطلقت خارجاً، ليس في ذهني تصور لخطة محددة، ولكن كان في داخلي ثورة إنسان يود أن يموت في حركة نضال عن حياته، أغلقت الباب كما اعتاد الجندي أن يغلقه، تشدقت ببعض الكلمات العبرية البذيئة، وضعت كم يدي المبتورة في جيبي، مشيت ووضعت البندقية على كتفي، حياني بعض الجنود بكلمات قصيرة ولم أرد، درت حول المكان، كان بالخلف دورة مياه وبعدها بعدة خطوات سور من الحجر يبدو عليه القدم والتهدم، خطوات عدة خطوات احتضنت المكان كله في نظرة واحدة، ارتفعت المرارة في فمي، لقد كنت سجيناً في بيت قديم متهدم، ومن المفروض أن أموت هنا مثل الجرذان، ومجموعة من الجند يلهون بكرة بيضاء، يتلقفونها في سرعة

ومرح، تحركت محاولاً أن أعيد إلى نفسي الإحساس بالخطر إنني أتعرض للموت الآن في كل لحظة، وهي لاشك آتية لا ريب، ولكنها لحظة سعيدة أن يموت الإنسان وهو يناضل.

ارتفع صوت يناديني بالعربية، لهجة أهل المغـرب وتوقفت وأنا أتظاهر بالنظر إلى الحائط وكأنني أترقب حركة ما حتى لا يراني صاحب الصوت مباشرة، صاح الصـوت من خلفي:

- إلي أين أنت ذاهب؟

لم أرد، حاولت أن أتذكر كيف أنطق مثـل لهجتـه، سبني بكلمة قاسية ثم قال:

- أنت ذاهب بعد أن سحبتني إلى هنا، أنت السـبب في كل هذا البلاء، ملعون..

لم أرد، وعاد هو يقول:

- مجد الرب!! من قال لك إن هذه الأرض وحـدها هي أرض الرب؟ وبقية العالم أرض الشيطان؟!

ضحك في سخرية ودفعني في ظهري بقوة، شعرت ببعض الدوار ولكني تمالكت، ووقفت صـامتاً أنظـر إلـى الحائط، عاد يقول:

- يقولون إنك مصاب في عقلك وسينقلونك من هنـا إلى فرقة الزراعة، ستكون هناك أسعد حالاً، تصور..

ستكون عاملاً في مزرعة..!!

المجد للرب!!

وقفت حائراً، هذا الجندي الثرثار، يبدو أنه صـديق الآخر ومن نفس الموطن، راح يسب فـي ضـيق، اسـتدار أخيرا وهو يقول:

- لن أراك بعد الآن، الوداع يا صديقي، تذكر وأنت راقد في سريرك أنك أنت السبب في كل هذا، تذكر.

مضى الجندي الثرثار وهو يضحك. قفـزت فـوق السور وتخطيته، وجدت نفسي في حقل، راودتني الرغبة في النوم، تذكرت الجندي المقتول، وتذكرت البحـث المجنـون، اندفعت بأقصى سرعتي، وكان همي البحث عن مخبأ.

مضى الوقت وشعرت بإرهاق كنت قد وصلت إلـى أرض رملية، خضت في الرمال دون هدف، لاحظت عـدة حفائر في الرمال، يبدو أنها منطقة عمل أو أبحـاث تنقيـب يبدو أنهم يبحثون عن شيء ما، ربما عن تاريخ لا يعرفونـه أو حلماً فقد من أحدهم، وصلت إلى تل مرتفع قليلاً، صعدت

التل، كبلني الإرهاق والجوع، صنعت لنفسي حفـرة وسـط مجموعة من النباتات الرملية النامية قليلاً، والتـي تتوسـط التل، ورقدت، وضعت سلاحي في وضع استعداد وتمـددت مترقباً في توتر، وكانت بي حاجة إلي الراحة حتـى يهـبط الظلام.

الوقت يمضي، يبدو أنني غفوت بعض الوقت، تنبهت على أشعة الشمس تميل نحو المغيب، تسـرب البـرد إلـى جسمي تحسست بكف يدي حبات الرمـال البـاردة، حنـون وحزين هذا الرمل الناعم، لمست يدي ساق نبـات أخضـر خشن، جذبت الساق الذي تحطم في يـدي، قربـت السـاق المحطم من فمي في تردد، لا طعم له، مضغته، زاد جفـاف فمي وحلقي، بصقته في ضيق، شعرت بالتهـاب حـاد فـي لساني.

وفجأة رأيت شبحاً قادماً لرجل وحيد، تنبهت حواسي للخطر تناسيت ألمي، وضعت مؤخرة البندقيـة فـي كتفـي وأصابعي على الزناد، لم أكن قد جربت إطلاق النار بيـدي اليسرى، اقترب الشبح، اتضحت معالمه رويداً رويداً كلمـا اقترب، إنه يرتدي ملابس تشبه ملابس العمال، ويحمل لفافة

في يده، اقترب الرجل وأصبح في مرمـى الضـرب مـن بندقيتي، صحت فيه:

- قف.

وقف الرجل مذعوراً رافعاً يده وهو يقول:

- ها هو التصريح يا سيدي.

لم أفهم، كان الرجل ضامراً تبـدو عليـه علامـات المرض، ولكن لهجته ليست غريبة على أذني، إنهـا لهجـة أهلي، قلت بفرحة، أخشي التغرير بي:

- أرني التصريح يا رجل.

وتلفت الرجل بحذر، وقال:

- ولكنني لا أراك يا سيدي..

- اقترب.

اقترب الرجل رافعاً يده، كان بداخلي، رغم لهجتـه وصوته، بعض الشك، صحت بالعبرية:

- قف مكانك وضع يدك على رأسك.

لو كان منهم فسوف يسبب لي متاعب كثيرة، لابد أن أكون على حذر، قررت أن أتخلص منه، وقفت وأنا أحمـل

البندقية، واقتربت منه، كان يرتعد في خوف حقيقي، قال في توسل:

- معي تصريح يا سيدي، معي تصريح..

- أرفعه إلى أعلى.

بطاقة صفراء عليها صورته ومجموعة أختـام، لـم أتبين المكتوب جيدا، ولكن زال بعض الشك.

- قرب يدك يا رجل.

تبينت الكتابة بالعبرية، تصريح لمـدة ليلـة واحـدة للانتقال من قرية إلى أخـرى، عربـي مقـيم فـي الأرض المحتلة، صحت في فرح بلهجة أهل البلاد:

- عربي فلسطيني؟

قال الرجل في ثقة بنفس اللهجة:

- نعم يا سيدي، هذه قريتي.

وأشار ناحية اليسار، نظرت ولم أتبين شيئًا، ولكنـي أخذت أحملق فيه، أشمه، أشم رائحة بلادي، المسروق يعرف قرشه من بين كافة القروش المتشابهة، حقـاً، هـذا الرجـل أعرفه، ليس حتماً أعرفه شخصياً بالاسـم، ولكنـي أعرفـه وأعرف فيه سمات أهل بلادي، عدت أسأله مرة أخرى:

- حقاً أنت فلسطيني؟

هز الرجل رأسه علامة الإيجاب وتقدم عدة خطوات وقال:

- وأنت الآخر، لقد عرفتك.

ابتسمت، ارتخت يدي ووقفت حائراً، أخـذ الرجـل مبادرة الحديث والسؤال:

- نعم عرفتك، وإنني أعلم، كما يعرف أهل القريـة كلها، أمور كثيرة عنك، ودائماً نتحدث عنك، ولم أكن أصدق نفسي حينما رأيتك.

تمدد حبل الثقة بيني وبين الرجل، طلبـت منـه أن يجلس معي في الخندق، تقدم وجلس بجواري، تمددت أنا في راحة وكأنني في بيتي، نوع من الهدوء شملني، قال الرجل:

- معي تصريح لزيارة أختي على الحدود، حصـلت عليه بعد عام من التسويف والإلحاح.

ثم نظر إلى الشمس التي مالت بشدة ناحية الغروب، وقال:

- يمكنني أن أدلك على الطريق.

- لكن..

وقف وتحرك هابطاً التل وهو يقول:

- هذه فرصتنا الوحيدة، إنني أعرف الطريق جيدا.

ويجب أن نسرع.

قفزت خلفه، انزلقنا على الأرض الرملية، شدني الرجل فقد كنت لا أكاد أقوى على السير وعلى وشك السقوط، ناولني علبة من التمر كانت معه، أخذت أبتلع حباته في شراهة.

كان الرجل، مع ما يبدو عليه من الهزال والمرض سريعاً نشطا يسير في حيوية، يرقد على الأرض ويضع أذنه على الرمال يستمع خطوات الداوريات ثم يقف ويسير بعد ذلك في ثقة، وأنا أتبعه متعثراً في خطواتي فيجذبني إليه، ويحملني على السرير.

الليل والظلام ونجوم تلمع برهة وتخبو، وحشرات صغيرة تلسع الوجه، والرمال تعوق الأقدام، والرجل يشدني، وينهرني إذا وقفت وهو يردد.

- لقد اقتربنا من الحدود، تقدم.

- منذ مدة طويلة وأنت تقول هذا.

ونسير عبر وادي الرمال ونتخطاه، وأشعر بأن نهاية العالم قادمة، وتتراخي خطواتي ولكن الرجل لا يتـرك لـي فرصة الراحة، يجذبني إليه ويقول:

- لقد اقتربنا..

- وكيف نتخطى الحدود؟

- يساعدنا الله.

الخطر الحقيقي يكمن هنا في عبور الحدود، ليس من العدل الإنساني أن أعرضه لنفس الخطر الذي أتعرض له.

- اذهب أنت يا أخي، لك أسرة وأطفال كما أن معك تصريحاً بالسير..

- لن أتركك.

- أنا خطر عليك، إنهم يبحثون عني.

- أبدا والله لن أدعك وحدك حتى تعبر الحدود.

- صف لي الطريق، ودعني فأنا..

ولم أكمل جملتي فقد جذبني معه إلى الأرض، ودوي طائرة تدور في السماء فوقنا، قال الرجل هامساً:

- أنها داورية ليلة ترقب تسال الفدائيين.

الفدائيون، يا له من لفظ جميل، كلمة موسيقية عذبة تدفق عبر أذن التعساء في الأرض..

- وهل يتسلل كثيرون من هنا؟

- عمليات الفرق الانتحارية تأتي من هذا الجانب.

ذهبت الطائرة ولم تعد، جلست أستريح، هالني اكتشاف هام، لم أكن أعرف زميلي تماما، تنبهت وسألته بلهفة.

عبد الله، هذا هو اسمه، في الخامسة والثلاثين، يعمل في مزرعة، ليس لديه فرصة للراحة، لا يتركون له فرصة لالتقاط أنفاسه، العمل المرهق تحت ضغط الحاجة والجوع والإرهاب، هذا هو الطريق لكي لا يعطونه فرصة للتفكير في الأمر كله، الأجر قليل والأسعار مرتفعة جداً، الفكر مشغول بتدبير الحاجات الضرورية لأسرته، كبلوه بالحياة لكي لا يجد وقتاً، ويجد الآخرون هذا الوقت، ربما تجمعوا وفعلوا شيئًا.

يقول عبد الله:

- نحن هنا مجرد أرقام، انظر التصريح الذي حاولت الحصول عليه منذ عام، عامل رقم كذا ولكي تنتقل

من مكان إلي آخر، مهما كانت المسافة، لابد مـن تصـريح ومجموعة إجراءات.

- واليهود ًأيضا؟

- معظم اليهود.

- كيف؟

اعتدل عبد الله، نسي لهفته الأولى للعبور، وقال:

- اليهود، ًأيضا عبيد هنا، وخاصة هؤلاء القـادمون من أوربا الشرقية وآسيا وشمال أفريقيا عبيد لا قيمة لهم.

قلت في سخرية، وكانت مثل هذه المعلومات تصـلنا من عيوننا أثناء عملي قبل الأسر:

- والآخرون؟

- عبيد أيضا، إنهم أفضل درجة – نسبياً – ولكـنهم عبيد أيضا.

تدفق عبد الله في الحديث، وكأن لديه خزاناً هائلاً من الكلمات الحبيسة، خرافة اليهود والوطن القـومي، ضـعف البلاد العربية، ثرثرة الرجال عندنا، الخرافة الكبيـرة التـي نعيشها، واليهود أيضا يعيشون في خرافـة، إنهـم يعملـون لصالح الآخرين في البلاد الأخري.

سكت بعض الوقت، ثم قال:

- الخوف، هو الذي يمسك زمام الأمور هنا.

الخوف هو القانون في هذه المستعمرة.

كلمات لها مدلولها من رجل عاش النكبة وما بعد النكبة، تمسك بأرضه ولم يبارحها أبدا لأنه ربما فهم اللعبة كلها، سألته:

- من المستفيد من كل هذا؟

- المستفيد!! ألا تعلم من المستفيد؟ بعد أن قطعوا يدك، هؤلاء الذين حاربتهم في القناة أصحاب هذه الإقطاعية التي تسمي دولة..

- ولكن يا عبد الله..

- إنني أعمل في الحقول وسط آخرين قدموا وهم يحلمون بالمجد والشهرة والثروة، ولكنهم الآن يندمون، ولكن بعد فوات الأوان، لقد وضعوهم أمام خط النار، الخوف، اقتل دائماً أو تقتل، السلام لا يعني لك إلا الموت، أنت تعيش وسط مائة مليون، أحمل السلاح واقتل ولا تتوقف أبدا، قانون الخوف.

بدأنا نتابع السير نحو الحدود، ومضي الوقـت وأنـا أقلب كلمات رفيقي، إنها بعض الحقيقيـة، لأن الأمـر كلـه خدعة كبري، حالة من حالات التاريخ الشاذة، البعض خـدع البعض، ولم يعد الآن يمكن التمييز بين الخادع والمخـدوع لأنهم جميعا اشتركوا في اللعبة، لعبة القرن العشرين، ونحن وحدنا دافعوا ثمن هذه اللعبة.

ولكن الحقيقية مهما اختلفت أشكال الكلمات، ومهمـا تغيرت عبارات الجمل، فالحقيقة واحـدة لا تتغيـر بتغيـر الكلمات ولا الجمل، أنهم اغتصبوا أرضي وطـردوا أهلـي وقتلوا أخوتي وشردوا عشيرتي، ولـن ترجـع الأرض إلا معركة مصيرية ضارية بيننا وبينهم، نخوضها فـي بحـور الدم.

- ولكننا يجب أن نعود.
- حتماً.
- سنفترق هنا يا رفيقي.

سقطت دمعة من عيني تقابلت مع دمعة رفيقي، بحر الشوق مثل بحر الغربة يتكونان من قطرات دمع ساخن مـن

عيون محرومة الرؤية العذبة، ولكن ربما نلتقي يوماً، حتمـاً سنلتقي..

- انظر هذه قرانا في غرب أردننا العزيز.

- لابد أن تتسلل قبل الفجر..

-....

- وجودي معك يجلب لك الضرر، اذهب الآن.

- كن على حذر..

- كن على حذر...

وابتعد ومشيت، نحو النقطة..

(١٥)

كان علي أن أجازف، فالأرض مكشـوفة والـتلال منخفضة لا تصلح للتستر خلفها، وجنود الحدود في مراكـز بعيدة، يراقبون في تيقظ. ونور الفجر يقتـرب، والإرهـاق يسلب إرادتي، وإحساسي بقـرب النهايـة يجعلنـي، أكثـر اضطراباً وقلقاً.

وكان علي أن أزحف في حذر وفي جرأة أيضا، فإن كان لي حظ الحياة نجوت وإن مت كان هذا أفضل وأمـوت شهيداً، ولكن يا للهول، مر برأسي خاطر، ماذا لو أمسكوا بي وأعادوني حيث كنت لأموت بعد ذلك ميتة كلـب أجـرب، اندفعت زاحفاً، الموت في الحركة أفضل والمغامرة محبوبة.

والزحف على اليد اليسرى متعب وبطيء، والأرض رطبة، مبللة، والرمال تنزلق من كفي، سراب أتشـبث بـه، الحياة تدفع الدودة لأن تزحف بإصرار حتى حافة الحفـرة، ولا تكاد تقترب من القمة حتى تسـقط إلـى القـاع فتعـاود الصعود مرة أخرى، ويتكرر سقوطها، وتتكرر محاولاتهـا للصعود، وأخيراً تنجح الدودة في ارتقاء القمة وتنظر إلي ما بعدها، حيث الهوة السحيقة بعيدة الغـور، وقفـت حـائرة لا

تدري أي مسلك تختار، السقوط في الهـوة أم العـودة إلـي الحفرة التي خلفها؟ وفي كلتا الحالتين ستموت جوعاً أو قتلاً!!

قديماً كان يقول العارفون، في مثل هـذه الأحـوال، ووفقاً لكلمات الشيخ الضرير، إن السقوط أفضل ألـف مـرة والموت قتلاً مرة واحدة أفضل من المكوث في الحفرة حيث الموت على دفعات، وبما أن الموت هو المصير الحتمي لكل الكائنات الحية، وحيث إن اللعبة كلها لا تسـتحق الانتظـار، فالأفضل بالفعل ممارسة الموت.

وقررت المجازفة، وعبرت جهنم، ربما أجد الجنـة حيث التمر والليمون، وحيث تلك الأشياء البديعة التي تفـوق النساء جمالاً، تخطيت بعض الأسلاك، المجد للسماء، المجـد للإنسان، أعبر الشوك إلى حوض الزهور.

الدودة تقدمت في خطوات حلزونية، يراقبها صـقر جائع انقض عليها في لهفة، ملعون هـذا الصـقر الجـائع، التقطها بين فكيه وارتفع بها إلى السماء، وشـعرت الـدودة بالدوار وتتباعد المرئيات أمام عينها، رهيب ذلك المحيط من الفراغ والصمت، قطع الصمت صوت طلقـة نـار، هـوى الصقر من شاهق يولول مثل امرأة حبلى، تلك طلقة صـياد

ماهر رأى الصقر من كل هذا البعد، سقط الصقر على الصخور، صرخ من الألم، لم يتحكم في فمه، سقطت الدودة على جذع شجرة جاف، ارتطم جسدها اللين بالجذع الخشن، ويصاب جسد الدودة، ولكن رغبة في الحياة بقيت في الجزء السليم من جسدها تزحف به وتصل إلى مرقد آمن في جذع الشجرة، ترقد تلملم جسدها المنهوك وتعوي في ألم، تتحين فرصة مواتية لمواصلة الحياة من جديد بعد أن تداري جراحها.

والشجرة لا ثمر فيها، جافة حزينة، فروعها مشرعة إلى السماء كأيدي أطفال جوعى، وألم في فخذي، أحركه بصعوبة بالغة وأجرة بقوة، أسندت رأسي وظهري لجذع شجرة كبيرة، شجرة رضوان، يجلس تحتها ملاك الجنة يقدم للجوعى الطعام، طعام الأبدية، وللظمآى شراب الفردوس، ويضع يده على جراح المعذبين، ويأتي ملاك آخر يحمل في يده سلال التفاح، وآخرون يدورون حوله بالشموع الموقدة، يرقصون رقصة الحياة العلوية وطفل يصرخ ويعوي كذئب، يطلب جرعة من اللبن، والملاك يطلب منه الصمت والصبر، ولكن الطفل يعوي في ضراعة طالباً جرعة ماء، والملاك

يعود ليطلب منه الصمت والصبر ولكن الصمت يتخلى عـن الطفل ويتركه، لقد شعر الصمت بالإهانة فيذهب، والصـبر هو الآخر يلم أطرافه من حول الطفل ويحمل أكياسه الناعمة الرقيقة والتي كانت تسند الطفل ويطير بعيداً، وإنـاء المـاء قريب لا يبعد سوى مقدار قبضتين من يده، ومـددت يـدي لأمسك بالإناء ولكن يدي انغرست في الرمال وقبضت علـى رأس حية ميتة قذفتها في رعب، وعاد إناء الماء، من جديد، تتساقط من حوله قطرات كدموع الرجل الشـجاع، غزيـرة براقة صادقة، ولكن الشيطان يأتي ويسكب الإنـاء ويريـق الماء على الرمال ويصيح في الطفل طالبـاً منـه الصـمت والصبر، ويغضب الملاك ويصرخ في الطفل طالباً منه أن لا يسمع كلمات الشيطان، ويقول الملاك، أيضا، إنه يجب تعلـم الصمت والصبر. والطفل حائر أيهما سيعطيه الماء ليشرب.

ويعاود الطفل البكاء، إنه يطلب جرعة ماء، ويعـود الملاك ليطلب منه الصمت والصبر، ويرقص الشيطان فـي رشاقة حول الطفل ولكنه لا يكف عن البكاء، فيطلـب منـه الشيطان الصمت والصبر، ولكن الملاك، يخشى على الطفل، فيسارع ليطلب منه أن لا يسمع كلام الشـيطان وأن يـتعلم

الصمت والصبر، ويقذف الشيطان بحجر فيحطم رأسه ويصرخ الشيطان من الألم، وتسيل من رأسه الدماء، ويبكي الشيطان في توتر إنساني، فيتقدم منه الملاك ويطلب منه الصمت والصبر، ولكن الشيطان يثور، كرامته تهان شرفه الشيطاني، سمعة الجدود، يجب أن ينتقم، ويقذف الملاك بحجر، ويصطدم الحجر بجسم الملاك الذي يتحول إلى قطع صغيرة، تجري في خوف وهي تبكي في صوت مكتوم.

الأقصوصة مازالت تروى، والبطل غلام في المهد ما يزال، المهد نحاس أحمر، ليس ككل الغلمان غلامنا هذا لأنه ابن ملاك هبط من السماء الثالثة عشرة ابنة رجل راعي غنم.

ينفجر الماء من نبع قرب الطفل الذي يمهد يده إلى النبع ويأخذ حفنة من الماء يدفعها إلى فمه، وتسيل المياه من بين أصابعه وتتساقط على صدره، وينتفض الطفل في سعادة ويعود ليأخذ حفنة أخرى من النبع، ولكن رجلاً ضخماً يقف بينه وبين النبع ويقول:

- يجب أن تذهب بعيداً عن القرية.

يقول العارفون ببواطن الأمور إن غلام المهد لم يكن محبوباً من أحد، ويقول العارفون، أيضا، إن الخوف حيـث منبع كل القوانين هو الذي كان يسيطر على العلاقة الموجودة بين الغلام والمحيطين به، وحيث إن الخوف هـو العلاقـة الطبيعية، بين كافة الكائنات الحية التي تعيش في عالمنا هـذا والذي لا نعرف، حتى الآن، عالماً سواه، فإن من الطبيعـي أيضا، كما كان يقول الشيخ الضرير في الزمن السـابق، أن يتصرف الإنسان وفق هذا الإيمان الطبيعي، وتأتي تبعاً لذلك لعبة الطرد.

- إذا علموا أنك لجأت إلى هنا فإنهم سوف يدمرون القرية كلها.

الرجل كان أسمر عريضاً طويلاً وله لحية سـوداء، تبدو عليه أمارات السلطة.

- أين أنا؟

سألت الرجل لم أفهم ما يدور حولي تماماً، لم يجـب الرجل بل واصل ما كان يقوله للآخرين:

- المهم أن يسرع بالابتعاد عن هذه الناحية.

وجوده يهددنا بالخطر.

اعترض آخر كان يجلس بجوار رأسي:

- ولكن الإصابة خطيرة و...

- وتحتاج إلى عناية، وهذا لـيس موجـوداً وهنـا يجب..

- ولكن..

- فقط من الممكن الانتظار بعض الوقت.

-.........

- لا تدعوني أفقد أعصابي، وإنه خطر علينا وعلى نفسه.

يبدو أن الرجل يملك عليهم سلطاناً، انسـاقوا وراءه، تقدم مني شابان وساعداني على القيام، نظرت إلـى قـدمي، كانت ملفوفة في ضمادات بيضاء، لا أستطيع السير عليهـا، حينما وضعتها وحاولت، شعرت بالألم، لاحظت سيدة تقـف بمدخل الحجرة قالت:

- احملوه يا شباب، فهو ما يزال مريضاً.

رفعني أحدهما من الجانب الأيسـر، والآخـر مـن الجانب الأيمن، خف ثقل جسدي، استطعت أن أحرك قـدمي في صعوبة.

خرجنا من البيت، وسرنا في أحـد الـدروب نحـو الميدان، الميدان يبدو من بعيد، الدرب ضيق، الجو خـانق، أشعر بالرغبة في القيء، أحس وكأن الهواء يخترق جسـدي من كل اتجاه، ومع هذا أشعر بالاختناق وضيق في التـنفس، وآلام حادة في ظهري، الرغبة في الموت، أو الرغبـة فـي لحظة عدم، حيث لا تكون مهتماً بكل الأشياء ولست مسئولاً عن شيء. الرغبة في الاختفاء والانزواء والبعد عن كل مـا يحيط بالوجود البشري.

- أين أنا؟
- أنت في بلادك، جئنا بك منذ ثلاثة أيام.
- منذ متى؟
- لقد وجدوك جريحاً على الحدود، فنقلوك إلى هنـا وأحضرنا طبيباً ليراك.
- على الحدود، كنت جريحاً، في ساقي ترقد دفعـة رشاش.
- نعم.
- وإلى أين الآن؟

- نرجو ألا تغضب، منذ ثلاثة أيام وأنت ترقد فـي دار الحاج سلام، ونحن على الحدود مباشـرة، وهـم دائمـاً يأتون، يخربون ويدمرون.

تصورت ما حدث، تتابعت الصور في سرعة هادرة، الحدود الرشاشات المجنونة، دفعة رشاشات اسـتقرت فـي ساقي، حملوني جريحاً، نوبات الحمى، لاذعة مرارة المرض مازالت في فمي، وصلنا إلي الميدان، بدأت أشـعر بالقـدرة على السير، خطوت في سرعة، ولكن الألم أرتفع كالصاروخ إلي رأسي، تمهلت شعرت بضعف يسري في جسدي كله.

كما قد وصلنا إلى أول الميدان، قال الآخر:

- سوف نضعك الآن في سيارة متجهة إلـى أربـد وهناك ينتظرك زميل لنا اسمه حسين ومعه الأوراق اللازمة وسوف يقدم لك المعاونة لكي تصل إلى عمان.

وساعداني على الجلوس في السيارة بجوار النافـذة، ووضعا معي بعض زجاجات الأدوية والأربطة، وجلسا معي حتى تنطلق السيارة.

أردت أن أقول لهما شيئاً، ولكني لـم أقـدر، كنـت مرهقاً، محطم الإحساس، في حاجة إلى إعادة التفكيـر فـي

خطط الحياة، ضائعاً لا أمل لي، يخشاني أهلي وأبناء وطني، كنت أود أن أقول لهما، كما كان يقول لي الشـيخ الضـرير حينما كنت أجلس إليه صامتاً حزيناً لأني أخشي غضبه مـن شيء سيئ فعلته، كان الرجل يقول:

- هل أنت خائف بالفعل أم أنك تتظاهر بذلك حتـى يخف عقابي لك؟

قال الشاب بعد فترة صمت طويلة:

- نرجو ألا تغضب من الحاج سليم.

هززت رأسي علامة النفي، عاد نفس الشاب يقول:

- إننا على الحدود، ونحن..

أشرت إليه بالصمت، وابتسم الآخر، وهو يقول:

- كنت تتحدث أثناء مرضك وتقول أشياء غريبة.

وعقب الآخر، وكانت محركات السيارة بدأت تدور، وقال:

- لشد ما قاسيت، ولكن لا تيأس، سننتقم لك.

وقفز الشابان، والسيارة تتحرك، ثم لوحا لي بأيديهما.

الطريق يبدو طويلاً، والسيارة تهتـز فـي عنـف، جسدي يتفكك مع هزات العربـة، يتحلـل يصـبح أجـزاء

محطمة، الركاب من حولي ينظرون إلي، بعضهم يقول شيئاً كأنه يواسيني، وبعضهم يكتفي بالنظر، وأنا أتململ بقلق في جلستي، قص أحدهم قصة هجوم خاطف قام به اليهود على مجموعة من المزارعين في حقل يزرعونه، خطفوا ثلاثة من الرجال وذبحوا ثلاثة،.. وأصابوا صبياً وامرأة بجراح خطيرة، ابتسم جالس في الصف الأول وقال بعض الأحكام العامة لا معنى لها، تشنج شاب يجلس في مؤخرة العربة وطالب بالثأر، وافقه بعض الركاب، لم يستمر الحديث على هذا النحو سوى دقائق، استوعب الركاب منظري غير المألوف، لم أعد مثاراً للحديث والنظر، تحول الحديث إلى حلقات صغيرة عن النساء والأزياء وكرة القدم.

وصلنا إلى المدينة، توقفت السيارة في مكان يشبه السوق باعة وأصوات عالية، بعض الصبية يجرون خلف شخص يصرخ، هبط الركاب، نظرت إلى الشارع، تقدم مني شاب طيب الملامح وعاونني على الهبوط من السيارة، وحمل زميل له ما معي، ثم ساعداني في الوصول إلى منزل من دور واحد من طراز عربي قديم، دخلت البوابة الرئيسية ولم نقابل أحداً، سرنا في المدخل برهة، ثم دلفنا إلى حجرة

بالداخل وأجلساني على مقعد وثير من طراز قديم، وشعرت بالراحة، وسرى في جسدي نوع من الرطوبة شعرت بعـدها بالبرودة أسرع أحد الشبان وأحاطني بالوسائد.

مرت لحظات، تشممت رائحة المكان الرطبة، قـال أحد الشبان:

- أهلاً بك، سامحنا يا أخي، سوف تمكث هنا قلـيلاً من الوقت حتى يمكن تدبير وسيلة لنقلك إلى عمان.

عمان، ماذا أفعل في عمان؟ أريد العودة إلى حيـث كنت، خان يونس الباقية، حيث الصحاب والأحباب، ولكـن من بقي منهم حتى اليوم، من مات ومن عاش؟ تلعب معنـا الأيام لعبة غريبة، نتآكل مثل شاطئ رملي تحت وطأة مـوج عربيد، إلى متى يستمر هذا التآكل؟ هل يمكن وقفه؟

سألني أحد الشبان:

- إن كان لك طلبات فنحن سعداء لنؤديها لك.

- شكراً.

جميلة تلك اللهجة، حبيبة إلى قلبي، أخشى ما أخشاه أن تذهب، تزول، تصبح مثل نقوش الأجداد.

- بماذا تأمر يا أخي؟

- نحن في خدمتك يا أخي.

- شكراً.

خرجا، تركاني وحيداً، تـذكرت حـوادث قديمـة، تذكرت (المندرة) في منزل أبو خريس المهاجر الفلسـطيني في الإسماعيلية والجلسة الأسبوعية في داره، وأقداح الشـاي الصغيرة المرة، ثم أقداح أخرى أقل مرارة وأكثر حلاوة، ثم طواجن اللحم والثريد، ثم حبات البرتقـال، وبعـدها القهـوة السوداء ولفائق التبغ، ويمتلئ المكان بالضـحكات وأخبـار عفاريت المعسكرات وقنابل تنفجر، وتتطاير الشظايا، وبريق الكشافات، وعربات الجيب، ومكامن الفدائيين فـي حـدائق المانجو.

يبدو أنني رحت في النوم لفترة طويلة، فلم أشعر إلا والشاب يوقظني، قائلاً:

- لم أكن أود أن أوقظك، ولكن مضى وقت طويـل ولم تأكل، كما إنك لم تتناول الدواء.

شعوري بأنني عاجز يؤلمني، خدمة الآخرين تسـلب مني حيويتي، اهتمامهم بي يربك تفكيـري ويشـل عقلـي،

تعودت على نوع من الإهانة، نضال من أجل الحصول على شيء أما هذا التدليل فلم أكن متعوداً عليه.

لزمت الدار ثلاثة أيام، دار حسين، وهو اسم مضيفي الشاب، بدأت أشعر بتحسن، رفعت رأسي في أمل، المـرض يسلب الإنسان قدراً كبيراً من الأمل، يضع على عينيه ستارة حزن، رأيت الدار، تمشيت بمساعدة الشاب فـي حجراتهـا وطرقها، قص علي الكثير من حوادث جرت في الدار أيـام جده، وجد جده أيضا، إنها عتيقة تلك الدار عاصرت أجيـالاً من العائلة أعطتهم الأمان والدفء هنا رقد جنرال إنجليـزي مريضاً وعالجه أهل الدار حتى شفي وبعدها عاد ليأخذ الجد إلى السجن، هكذا رد الجنرال الإنجليزي الجميل، هنا في هذه الحجرة الرطبة، كان الجد الثاني يجمـع الأسـلحة تجهيـزاً للثورة، وهنا أيضا زارنا الشيخ وجلس في هذا الركن، عـالم ملئ بالذكريات ولكن ما دور الدار الآن؟

وشعرت بألم الفراق يعصر قلبـي، حينمـا ودعـت صديقي صاحب الدار، وسقطت دمعة كبيرة وهو يلوح لـي بيده من نافذة السيارة، رحت أرقب يده وهي تتحـرك فـي الهواء والعربة تهتز في بداية حركتها، حاولت أن أقول لـه

كلمة، ولكني لم أستطع، اندفعت السيارة في سرعتها واختفي صديقي حينما انعطفت السيارة في طريق جانبي، إلى عمان، صوت الراديو يعزف موسيقى عسكرية، نظر الراكـب فـي أول الصف إلى سائق السيارة وقال له:

- ترن ترن، يا عم حول الراديو.

نظرت إلى الطريق، قلت للأشجار:

- مع السلامة.

أدار السائق مؤشر الراديو، اختلطـت الأصـوات، تعرض السائق لنقد شديد من شاب يجلس بالقرب منه وطالب بالعودة إلى محطة المارش العسكري، صـاح راكـب مـن مؤخرة العربة متهماً الشـاب بالاسـتعراض أمـام ركـاب السيارة، مازالت الأصوات تنبعـث مـن الراديـو متواثبـة ومختلطة.

صاح رجل عجوز في ضيق:

- أغلق هذا الماخور.

ساد الهدوء الشامل إلا من أزيز محـرك السـيارة، وران الصمت حتى وصلنا إلى عمان.

وفي عمـان قضـيت ثلاثـة أشـهر فـي ضـيافة (الداجوري) وهو رجل من بئر سبع، كـريم الخلـق، علـى جانب كبير من يسر الحال، يعمل في التجارة، استقبلني بنفسه في محطة الركاب وساعدني علـى الهبـوط مـن السـيارة وحملني في سيارته حتى بيته حيث استضافني.

كان في جيبي خطاب للسيد الداجوري علي أن أقدمه له وكنت أعلم أنه خطاب توصية، لم أحاول أن أرفض أخـذ الخطاب من حسين، وأيضا لم أحاول أن أعطيه للـداجوري، قيل لي إن الداجوري يدعم الحركة بماله ونفوذه، وقيل لـي أشياء كثيرة عن هذا السيد الثري وقدراته المالية والسياسية، بل إن أحدهم همس لي أن أذهب إلى بلدان الخليج عن طريقه وربما أجد هناك عملاً مربحاً يفوق أحلامي، كانوا يقولـون كلاماً كثيراً، ولكني كنت على يقين واحد لن أتخلى عنه.

ما أكثر تغير الأحوال، وما أكثر المصادفات في حياة البشر، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون في منطقـة الأحـداث، لحظات أبدية تغير ملامح الزمن، كم من الأيام مرت، بل من الأعوام، مرت وأنا أتعرض في كل لحظة للموت والجـوع

والآلام، فقدت يدي وأصيبت ساقي، وحرمت مـن الأسـرة والأولاد والبيت، ولا أدري ماذا أفقد بعد ذلك.

عاودت السير علي قدمي، كانت الخطوات الأولـي صعبة، العرج يبدو واضحاً، أكاد أسير علـى خـط وهمـي يفصل بين النار والبحر، وفي كل خطوة أخشـى الغـرق أو النار، ولكني حاولت، وكانت حديقة الداجوري فسيحة جميلة، كثيرة الشجر، ساعدتني على أن أجـرب السـير بمفـردي، وسعدت، رغم الألم، بقدمي وهي تتحرك، دون سند، تاركـة أثراً ليناً على حشائش الحديقة، وفي كل مـرة مـن مـرات التدريب أشعر بتقدم ويزيدني هذا تحمساً للمحاولة.

في إحدى مرات التدريب، التدريب المنفـرد الـذي أحاول أن أجعله بعيداً عن الأعين، رأتنـي (حسـناء) ابنـة مضيفي، وتقدمت مني وهي تقول، بينما وقفت مشدوهاً:

- مبروك.

تماسكت حتى لا أقع، ونظرت إليها في فرح، كـان في قلبي رغم ما مر بي، دماء الشباب، وهي جميلة رشـيقة مرحة.

وخفق قلبي، قلب المحروم الحالم أبدا، وقلت:

- شكراً لك.

مشيت عدة خطوات نحوها، من باب التظاهر بالقدرة الرجولية، تقدمت مني هي الأخرى، وقلت في فخر، متظاهراً بالمرح وحب النكتة:

- أستطيع الآن أن أدخل سباق الجـري مـع بطـل العالم.

ضحكت، كانت ضحكتها كدقات الوتر المشدود، نغمة مرحة حالمة في إحدى ليالي العيد، ضحكت أنا في توتر.

قالت، في انبهار تمثيلي:

- هكذا مرة واحدة...!

تقدمت عدة خطوات أخرى، بعدها كنت بجوارها، لا أدري ما الذي يدفعني إلى مداومة النظر إليها، حاولت عـدة مرات الابتعاد وعدم الاهتمام باستراق النظر إليها، ولكني لم أنجح، كان هناك ما يشدني إليها، إنها جميلة، رقيقـة مثـل الحلم الحلو مرحة كطير طليق في وادي السـعادة، صـغيرة نظرة كزهرة الياسمين في ليلة صيف، سعيدة زكية كطفلـة أسرة الحب، ترقص في مشيتها على نغم من أرغول راعـي الكتاب المقدس، تطير في وثبها على سلالم البيـت، يتـدفق

حديثها حيوية كشلالات الخير الخالص الهابط من السـماء، مالي وهذا الملاك؟

قلت في كبرياء:

- نعم، مرة واحدة.

جلست على أول السلم ومـددت سـاقي لأسـتريح، جلست حسناء بجواري وهي تقول:

- أنت بطل.

إنها تعاملني برقة لم أتعودها، وبكثير من الإعـزاز يجعلني أخجل من نفسي، قلت في لعثمة حقيقية.

- لا بطولة هناك.

اقتربت مني أكثر، ارتفع وجيب قلبي، اضطرم الـدم في عروقي، تخيلت نفسي أدور معها في رقصـة، رقصـة اسمها الحياة، أحملها فوق كتفي وأعبر السحاب والموج، ألف يدي حول خصرها وانطلق في الـوادي الأخضـر مترنمـاً بأغنية الحب الأبدية، أدق معها أبواب الأمل، أصارع معهـا ومن أجلها تقلبات ذلك الزمن العربيد.

- ها أنت تعود مرة أخرى إلي صمتك وأحلامك.

- أنا...

- نعم، دائماً تكف عن الحديث فجأة.

كانت هناك نبرة عتاب، والعتاب لا يكـون إلا بـين الأحباء والأصدقاء، استدرت أواجهها، تلاقت عيوننا، وكأنني سقطت في بئر عيونها الزرقاء الصافية الزرقة، حاولـت أن أجذب نفسي وأصعد إلى أعلى، أن أنتشل روحي من الغرق في بحر من الهوى، ولكني لا أقدر، مسـلوب الإرادة أنـا، غريق في عذاب جميل، وودت لو قلت لها كلمات تدور على أول لساني وأنشدها في قلبي من آيات الشعر.

- انظر ها أنت تعود إلى صمتك.

قذفتني بباقة من الزهور، تحركت محاولاً الانـدماج في حديثها، قلت بصوت فاحم قادم من مؤخرة فـرن الفحـم المنطفئ.

- إنني أحب الاستماع إليك.

- بل تحدثني عن أعمالك معهم.

تمنيت أن أضمها إلـي صـدري، أن أحتويهـا، أن أداعب شعرها المسترسل في طراوة، ولكن الحياة لا تعطـي بقدر ما نرغب لكن بقدر ما ترغب هي، قلت وأنا أنظر إلي باقة الزهور.

- ولكن قصصت عليك كل شيء.

قالت في دلال:

- لا، ليس كل شيء، أنت تحـاول إخفـاء بعـض الأمور.

- كيف؟ أنا..

- أرجوك، قص علي كل شيء.

بدأت أقص عليها من جديد، وكلما ذكرت شيئاً على عجل، راحت تسأل عن التفاصيل وهي تنظر إلي في نهـم، وكأنها تحفظ أقوالي، والجلسة تطول والحديث يمتد وأشـعر في أعماقي بالسعادة وأنا أعبر لها عن كثير من الأمور التي كنت دائماً أخفيها بين نفسي، بل كنت، أحياناً، أحكـي لهـا بعض خواطر نفسي، وهي بكل هذا سعيدة مبهورة، ولكـن الجلسات تنتهي، لقد حضر بعض الأصدقاء، ويتفرق الشـمل الثنائي ليذوب في دوامة المجموعة الهائجة التي تـزن فـي رتابة.

رائع ذلك الشعور الذي يدغدغ حواسي، ولكن إلـي أين؟ وإلي متى يظل هذا الأمر؟ لابد من معـاودة السـؤال ولابد من وضع الحلول لمشاكل الحياة، لا وقت للرفاهية.

لقد شفيت تقريباً والرحيل لابد منه، الرحيل!!

الرحيل وهذا الوجه الصبوح، وجه حسـناء المـليء بالحياة؟

والسعادة، أليس لي جانب أنا الآخر من السعادة؟ ألم يخلق الله لكل منا حظاً من الحياة؟ وأنا مثل الآخرين؟!

أعلم أن هذا الحديث، عقيم ورومانسي في هذا الزمن الطيب، زمن النابالم المفلفل: ولكن الزمن الطيب هذا بنابالمه وحشوده المدرعة يخلق عالماً أكثر رومانسية من كلامي: إنه يخلق عالم الفناء.

ذات مرة قال لنا الشيخ الضرير حكاية لطيفـة عـن رجل أراد الوصول إلى الإشراق الإلهي، فجلس في صومعته يدعو الله:

يا إلهي، أمدد يدك، ساعدني في عبور النهر، اجعـل ملائكتك يرسلون إلي حبلاً يتدلى من السماء أصعد إليه لأرى وجه القمر.

وتدلي الحبل، وكان سميكاً بدرجة كافية، وأخذ الرجل في الصعود، وظل يصعد أياماً وشهوراً، دون جدوى.

وصاح الرجل:

- يبدو أن القمر لا يريد أن يراني، يا قضاة الشفقة ارحموا العبد الذي لا يريده القمر.

خرج إليه القضاة ونظروا القضية، وأشاروا عليه بالهبوط إلى الأرض.

وصمت الشيخ الضرير ولم يزد، همس من حوله بسؤال ولكنه ظل صامتاً، انصرف الناس عنه ورددوا قولهم المأثور عنه، مجنون والله ذلك الشيخ، ويومها قلت كما قالوا، ولكني اليوم، أسأل نفس السؤال الذي همس به مريدو الشيخ.

اجتمعت قضاة الشفقة وأصدروا حكمهم، كان القاضي هو المتهم، والمتهم ممثل الاتهام، وصدق القضاة العدول على الحكم الصادر وكان النفي من الجنة.

وصرخت ملائكة الرحمة، ولكن لا فائدة، رأيت دموعاً مثل حبات اللؤلؤ تنحدر على الوجه الجميل، ولمحت الأسى يجلل الوجه الصبوح، وأحسست أن الحياة تختنق في الصدر الحنون ووددت لو أنني قفزت من الطائرة، ولكن الطائرة سبقتني وقفزت إلى السماء وحملتني إلى مكاني القديم، تاركاً في عمان قلباً أخضر يرنو إلى الحياة بعين بللها الدمع، وأهداب تتساقط من فوقها ذكريات الأيام الجميلة،

وتركت معها أملاً حلمت به، وحلما سـعدت بـه، وعيونـاً غرقت فيها، يا قوم ألا أسألكم عن شيء؟

- من منكم عرف الرحمة؟

صاح ملاك الرحمة، وكان يركب نهراً، وقال:

- أنا يا رجل.

قالها والتهم ظهر سمكة، فضحكت.

ضحكت وتذكرت شيخنا الضرير، المخبول المجنون كما كانوا يطلقون عليه، كنت لحداثة سني أقول كما يقولون، هذا شيخ مجنون، كان الشيخ يقول، وهو بارد النظرة عصبي المزاج:

- إنكم يا قومي لا تعلمون، ولا تريدون أن تعلموا.

تأكلون وتسمنون، ثم تبحثون عن نقود لتأكلوا، ولأن النقود لا تكفي والطعام كذلك، فأنتم تشـترون بكـل النقـود طعاماً، وتأكلون كل الطعام، خوفاً مـن الجـوع، ودون مـا تدرون تسمنون وتتخمون، وينام العقل لا يصحو إلا للبحـث عن نقود جديدة لشراء طعام جديد، وتتعذبون.

صرخت في الملائكة، هبط ملاك منهم وفي يده سوط الرحمة ضرب الجلاد ومزق لحم الساق لسافك الدماء، ولكنه

يهبط أكثر، ويزداد هبوطاً حتى لم يعد يرى الرحمة فلقد هبط دون مستوى الرحمة ووقع في قبضـة الضـعفاء، وانطلـق الصوت:

- القاهرة ترحب بكم وتهنئكم بسـلامة الوصـول، ورحت في دوامة الحياة في المطار...

***

(١٦)

عدت إلى غزة..

عدت حيث كنت، تغير الحال، عاد العمران يغطـي الأرض من جديد، وانهمك التجار في الأسواق.. وبدأت وفود الزوار تعود، وعجلة الحياة تدور، لا تنتظر أحـداً، لا تهـتم بأحد، ولا تعتمد على أحد، إنها تدور مـع أجسـاد البشـر وفوقها.

عادت الحياة صارخة نابحة ككلاب مسعور، تنهش في خرقة بالية باقية من رداء كاهن عجوز، والكاهن حي ميت، ينتظر الرب يجود بعطاء قادم من زمن ساحق يـأتي عبـر الآلام البشرية للشعب الذي مات.

وهناء القلب قد مات، والإحساس بالظلم يؤذي النفس يحولها إلي شيء من رماد محروق، أسود كالفحم المبلـول، تتحرك لتأتي عملاً، لتلهو، لتحيا، لتفعل مثل كل الأفعال لكل الكائنات الميتة، بدون رغبة، وبدون أمل.

لم أعد سائقاً، ولم أعد صالحاً لذاك العمـل، ولكنـي مطالب بعمل، البحث عن عمل لبطل عائـد بوسـام، ذراع مقطوعة، وجسد هزيل وساق مريضة، أنقب عن الأصـدقاء

القدماء، لم أجد منهم سوى أربعـة والبـاقي قتلـوا، ظلـوا يتعقبونهم حتى أبادوهم تماماً، لم تعد فرقتـي التـي كونتهـا ودربتها، ماتوا جميعا، موسى، يـونس وجـلال، عبـد الله وقاسم، وآخرون كثيرون ذهبوا، قتلهم اليهود، بطشاً، عدواناً، والآن ما العمل؟

وتذكرت ابن أختي، لقد أخذته فاطمـة معهـا يـوم العدوان، لابد أنه أصبح الآن صبياً يافعاً، إن كان على قيـد الحياة، ها قد مرت سنوات وأنا لم أره، بل إنني كنـت قـد نسيته خلال معاناتي الشخصية.

وذهبت إلى خان يـونس، العمـائر حديثـة كثيـرة متشابكة، والشوارع مرصوفة جديدة، تلمع في وجه الشمس، تنزلق من عليها العديد من إطارات السيارات السريعة، الحياة تدب في هواء المدينة، أبنية شاهقة لمدارس تتابع في الشارع الواحد، كنت أعرفها، ونظرت إلى السائق في إمعان، يبـدو أنني أعرفه أو هكذا خيل إلي، كنت راكباً مـن أول محطـة لسيارات التاكسي وكلما نظرت إلى أحد يخيـل إلـي أننـي أعرفه، وأحملق فيه، هذا الرجل مثلاً، له وجه مألوف لـدي، هذه الملامح أعرفها، ولكن لا، إنه يبدو غريباً حتى لهجتـه،

إنه ليس من هنا، إنه يسأل عن شيء ما، ليس من هنا بالطبع لأنه لا يعرف هذا المكان الذي يسأل عنه، مكـان مشـهور بالقطع، من لا يعرف الميدان؟ وخاصة من سكان القطاع، إنه هناك يا رجل، لا ليس هناك، لقد أخطأت.

ابتسم الركاب لجهلي، ولكن هذا السائق أعرفه.

وقفت السيارة وهبط منها راكب وصعد آخر، نظرت إلى وجه السائق في مرآة السيارة، أعرف هـذه الملامـح، وصلنا إلى الميدان، بات علي أن أهبط من السيارة، انصرف بقية الركاب في عجل، تقدمت أعطي السائق أجرة الطريـق، مددت يدي بعشرة قروش، قال دون أن ينظر إلي وجهي:

- ليس لدي فكة.

حاولت أن أعثر على قروش صغيرة فلم أجد، قلت:

- وأنا الآخر ليس معي فكة.

توقعت ثورته، ابتعدت قليلاً استعداداً للرد في حالـة الدفاع عن النفس، ولكنه ما كاد ينظر إلي، بوجهه الغاضب، حتى صاح:

- بلال!!

حسناً لم يخب رجائي هذه المرة، ها هو يتعرف علي أيضا، قفز من السيارة واحتواني في أحضانه بنشوة وشوق، كان سميناً مترهلاً وأنا في حجم ذراعه، رفعني عدة مـرات إلى الهواء، وهو يردد:

- بلال، يا مرحب يا رجل، من يصدق أنك حي!!!! لقد حسبناك شهيداً.

ثم لف ذراعه حول كتفي، وقال:

- سوف نذهب إلى البيت فأنا في شوق إليك وإلـي حديثك. اركب يا رجل، إنني أكاد أبكي من التأثر.

كنت أنا أيضا متأثراً ولا أستطيع الكـلام، ودفعنـي ثانية إلى داخل السيارة، أغلق الباب بسرعة، وفي لحظـات كان يقود العربة منطلقاً نحو منزله، كانت دفعات الـذكريات تدافع في قوة وبدون تنظيم على لسانه في يقول كل شيء ولا شيء، يقذف الكلمات من فمه، تخرج مطوحـة مضـغوطة تحت الكثرة الهائلة التي في المرة الواحدة، بسام صديقي في عمليات الاقتحام الانتحارية، هو هكذا يود أن يأخذ الحياة في لقمة واحدة، كان يصمم على العمل طـوال الليـل، ويحلـم بالموت وينتظره فيظل ساهراً، يعمل في توليف المتفجرات،

في دراسة إحدى العمليات، في الخروج إلى عملية انتحارية، فقط لا تتركه خالياً وإلا سيثور عليك وعلى نفسه والعالم كله، يبدو أنه ما يزال على طبعه ولم يتغير.

بسام يتحدث في تدفق وحيوية، يهتـز جسـده مـع ضحكاته، تهتز أرطال اللحم حول بطنه وكتفيه.

حاولت أن أعرف منه كل شيء، ولكـن معلوماتـه تحتاج إلى وقت وصبر حتى أستشف منها ما أريـد، تفـرق الشمل للصحاب، انشغل الجميع في أمور الحياة بعد العدوان، هدمت الحرب منازل كثيرة، وخربـت متـاجر وبيـارات، تفككت أسر كثيرة، ابتسمت في مرارة، قلت:

- يبدو أنك أعطيت جسدك عناية أكثر حتى تـراكم هذا الشحم كله وأصبحت غير قادر على الأعمال التي كنـت تجيدها؟

زمجر غاضبا، كادت العربة تصطدم بجدار بارز في الشارع، أنقذها في آخر لحظة، قال:

- لا والله لا تقل هذا، الزمن فقط هو الذي فعل بـي ذلك.. ولكن وقت الجد أنا مستعد.

صمت لحظة، دارت رأسي وخيل إلي أنني أسقط من حالق، تمالكت نفسي قليلاً، موجة قوية من الصداع تعصـر رأسي، عاد بسام يقول:

- ولكن أنت ترى، ها هي قوات البـوليس الـدولي تقف بيننا وبينهم.

كانت السيارة تمرق فـي طـرق ملتويـة، ترتفـع وتنخفض، وترتفع السيارة وتنخفض مع الطريق، وفي تفاوت بين الارتفاع والانخفاض أشعر وكأنني معلق فـي الهـواء، أهبط فجأة فيسري في جسدي لذة مرتعشة وينتابني الكسـل، والسيارة أمريكية حديثة الطراز، زودوها بكل مريح يجلـب النوم والكسل للراكب، عاد بسام يقول:

- أقول لك الحق، لقد أتت علي فترة من الزمن كنت فيها لا أؤمن بشيء، وفقدت الثقة في العـالم كلـه.. حتـى نفسي..

تعجبني رفاهية السيارة، موسيقى هادئة تنبعث مـن الراديو وسائد ومساند ملونة، حرير يزهو بألوانـه البهيجـة هزات السيارة تأرجحك في متعة، يقول العـارفون بحكمـة

مصائب الدهر، إن الرفاهية الزائدة تذهب العقل وتثقل اللسان عن قول الحق.

نظرت إلى بسام، إلى عيونه المنفوخة بشراب اللـذة الحسية، مقاتل وضع سلاحه ونام، وفي نومه يحلم بالسـلام وعندما يصحو لا يستطيع أن يفرق بـين الحلـم واليقظـة، فيصدق أنه يعيش في زمن السلام، وهكـذا ينسـى المقاتـل سلاحه أو ربما يبيعه لبائع السلع المستهلكة، روبابيكيا..

- أنت تعس يا صديقي المسكين، أليس كذلك؟

وسكت بسام ولم يجب، أطرقت في أسف، شـعرت أنني آذيت إحساسه، ثم إنني الآخر مرت علي فترات مثلها، بل إن الجوع أحياناً ما كان يدفع إلي بأفكار، لو أنني نفـذتها في ساعتها، لتغير تاريخ حياتي، وأحسست بـاللوم لنفسـي والندم لأنني كنت قاسياً عليه.

توقفت السيارة أمام منزل صغير حديث يتكون مـن دورين، قال بسام وهو يشير إلي المنزل:

- ها هو المنزل، إنني بالشقة العليا.

وقفز من السيارة بعد أن عزف لحنًا بنفيرها، وقـف يحيي الجيران بإشارات يده، وجذبني إلـى مـدخل الـدار،

حاولت الاعتذار فلم يجب ولم يقبل عذري حاولت أن أشرح له المهمة التي قدمت من أجلها ولكنه أصر على تناول الغداء أولاً ثم أشرح له ما أريد، لم يكن أمامي سبيل آخر، صعدت معه إلى شقته.

المسكن جميل هادئ، ونقوش المفـارش والسـتائر عربية أصيلة، ونقوش المنسوجات دقيقة رقيقة، أحسست أن سيدة البيت جاءت من منطقة يافا، وشعرت بالارتياح، رحت أتطلع إلى ما حولي في سعادة، إحساس بالبيت يحتويني نوع من الأمان في الوطن، تنفست بعمق، شممت رائحـة البيـت الفلسطيني.. بسام راح يحدثني عن زوجتـه وبيتـه وعـن ازدهار الحياة في مدن القطاع، أشم رائحة لحم مشوي، بسام يقول هامسا:

- سوف يتحقق حلمك القديم يا رفيقي.

سألته، ورائحة الشواء تخدرني:

- ما هو؟

ابتسم في فخر ورفع صوته قائلاً:

- الجيش.. سيقيمون جيشًا من شباب فلسطين.

الجيش!! جيش الخلاص، رائـع ورب السـماء، آن الأوان للعمل حقيقة، سأبذل جهدا اسطوريا.

قلت:

- سننضم جميعا للجيش.

كان بسام مشغولاً عني، ينادي زوجته غاضبا مـن تأخرها في إحضار الطعام.

مضى الوقت، وكان لابد من الذهاب للبحث عن ابن أختي، طلبت من بسام السماح لي بالانصراف، ولكنه قال:

- انتظر فإن زوجتي ترغب في رؤيتك.

وبعد برهة، تقدمت سيدة شابة في خجل، وسلمت في وقار، عرفني بها بسام.

- مريم، زوجتي من يافا، بلدياتك.

رددت بعض عبارات المجاملة، رفعت السيدة عينيها إلى وجهي وقالت:

- كان بسام يحدثني عنك كثيـرا، كمـا إن هنـاك شخصا آخر يعرفك ويود رؤيتك.

قلت في لهفة، وبعض الأمل يشع في صدري:

- من هو يا سيدتي؟

ابتسمت السيدة في خجل عربي لا مبرر له، ثم قالت:

- بالتحديد هما شخصان، أعتقد أنك عرفتهما الآن؟

- فاطمة؟

- وابن أختك أيضا.

- أين هما؟ لقد جئت أبحث عن...

لم أرغب في إتمام جملتي، كنت قادما للبحث عن ابن أختي، لا داعي للكذب، لم يكن ابن أختـي سـوى الحجـة الشرعية، لا أدري الآن، المقاتل بشر أيضا، ذهبـت السـيدة لتحضر القهوة وتركتني مع تعليقات هذا الرفيـق المترهـل مرتبكًا من قفشاته وتعليقاته، عادت السيدة بالقهوة وراحـت تصبها، امتدت لحظات الصمت، كان بي إحساس بالخجل فلم أرغب في إفشاء سر نفسي، وآثرت السكوت، بعد لحظـات قالت زوجة بسام:

- كان بسام يقص علي ما كنتم تقومون به، وعرفتك من أحاديثه الطويلة عنك، فقد كان دائما فخورا بك.

تناول بسام رشفة قهوة في صوت مسموع وقال:

- كانت تقول: أرأيتم؟ ابن بلادي.

مرة أخرى أجد السيدة الشابة تضع على وجهها شالاً وتداري خجلها، سرى في جسدي رعشة غريبة من حركتها المتظاهرة بالخجل، قالت:

- في ذات يوم قابلت فاطمة في السوق، وكانت هي دائما تسألني عنك..

- وأين هي الآن؟ وكيف..؟

قاطعني بسام:

- بخير يا أبا الأبطال.

قالت زوجته:

- ولكنها في حاجة إلى من يرعاها.

- وزوجها؟

- زوجها!!

سكتت مريم ونظرت إلى زوجها، قـال بسـام فـي صوت حزين:

- ذبحوه أيام العدوان، حاولوا تهديدها لكـي تـدلهم على مكانك فذبحوا زوجها أمام بيته.

- وكيف تعيش الآن؟

تنهدت مريم في ألم لا نهائي، وقالت:

- كما يعيش المنكوب، تعمل فـي مشـغل لترعـى الصبي.

وقفت بي لهفة لرؤيتها، ولكن مريم قالت:

- إنها تعلم أنك مفقود، بل إن بعض القوم أخبرهـا بأنهم قتلوك، ولكنها لم تكن تصدق.

قال بسام بسرعة:

- وأنت أيضا، كنت تقولين إنه يقود المقاومـة فـي مكان آخر.

ردت مريم، بإصرار، وبدون خجل مفتعل:

- نعم، وقد رأيت بنفسك، المناضل لا يموت.

صهلت ضحكة بسام، مجموعة خيول جامحـة هـذا الصديق. قال وهو يحاول جذب أعنة ضحكته:

- تصور حينما قالوا، في عيد الميلاد الماضـي، أن داورية يهودية تعرضت لهجوم من الفدائيين قرب الحـدود، صاحت مريم مهللة..

قاطعته زوجته قائلة:

- ألم أقل لكم، إنه هناك يقـود مـن جديـد قـوات المقاومة.. قال بسام، في حرارة، ونحن نهبط السلالم:

- كانت هذه الأخبار تساوي العمر كله.

خرجنا من المنزل وانطلقت بنا السيارة عبر الشوارع، كلمات مريم عن المقاومة تهزني، حقيقة أنني سمعت أخبار تلك المنظمة التي بدأت أعمالها ليلة عيد الميلاد، كانتقام لصلب المسيح ولكني، الآن ودائما، تأكدت أن هذا هو الطريق الوحيد للعودة.

- ستكون مفاجأة لها.

كانت مريم تجلس في المقعد الخلفي، قطعت جو الصمت المحيط، بكلماتها، هز بسام رأسه وقال:

- فاطمة تحملت الكثير.

فاطمة، كيف هي الآن؟ كيف تبدو؟ هل تغيرت كثيرا؟

هل هي على عهدها أم إن الحياة غيرت ما بها؟

ووقفنا أمام المشغل، وهو عبارة عن جزء من مبنى قديم في شارع جانبي، يقف على بابه رجل أسمر، قال في بلادة حينما لاحظ وجودنا:

- الحاج غير موجود.

دفعه بسام برفق وهو يقول:

- لا نريد رؤية الحاج.

واندفع بسام إلى الداخل، ودلفت خلفه والبواب يصيح خلفنا:

- قلت لكم إنه غير موجود.

اخترق بسام الباب الجانبي وأخذ ينادي على فاطمة، بصوت مرتفع، أحدث دخولنا المفاجئ إلى المشغل نوعا من الفوضى بين العاملات، وارتفع ضجيجهن، إنها فرصة الراحة هبطت من السماء، رفع بسام عقيرته بالنداء.

وأقبلت من بين الصفوف، ترتدي السواد، لا تكاد تحملها قدماها، هزيلة ضامرة، تبدو امرأة مسنة، وتقدمت في خطوتين نحوها، ولكنها كانت تخطو نحو الصمت وكأنها منومة، لم ترفع عينيها إلا حينما صارت على بعد عدة خطوات منا، وكنا نقف في أول المشغل، تجمع حولنا فتيات المشغل في فضول، حاول بسام طردهن ولكنهن تمادين في الاقتراب، اهتزت فاطمة حينما رأتني أمامها، تلاقت عيوننا في لحظة إشراق سماوي، تبعثرت الكلمات وضاعت، أنقذنا بسام قائلاً:

- هيا نخرج من هنا فقد كدت أختنق.

وتحركنا لنعود، ولكن عاملات المشغل يشكلان دائرة ثرثارة تسأل في فضول نهم، راحت كل واحدة تزيح الأخرى لترى أكثر وتسمع أفضل، الارتباك يشل فاطمة، لا تتحـرك، بعض الكلمات تناثرت بسرعة البرق عن علاقتنا، وتعالـت ضحكات مكتومة، لم أحاول أن أفعل شيئًا، صوت الملاحـظ جلجل في قوة آمرا العاملات بالعودة إلى أعمـالهن، فجـأة ذابت الدائرة وعاد الهدوء يشمل المشغل، أخذنا نشق طريقنا إلى الخارج.

كانت الدموع تتساقط من عين فاطمة دون بكاء، نوع من الدموع ينساب بإصرار وبصمت، تنظـر إلـي دون أن تقول شيئًا، بذلت جهدا لأقول كلمة، أو أسأل سؤالاً، ولكن لا فائدة كان حلقي جافًا ولساني مشدودا.

حاول بسام أن يذيب تجمد الموقف ببعض الكلمـات، ولكن سرعان ما عاد الجو كما هو، وكنا نسير علـى غيـر هدى بعد أن تركنا السيارة أمام المشغل، ولكن فاطمة قالت:

- من هنا البيت...

وأشارت إلى شارع ضيق، سرنا بضـع خطـوات، وكانت مجموعة من الصبية يتقاذفون الكرة في صياح وجلبه، صاحت فاطمة في أحدهم:

- وليد، يا وليد، أقبل يا وليد.

وتلفت صبي أسمر صغير السن، ضـئيل الحجـم، برهة نحو مصدر الصوت، ولكنه سرعان ما تشاغل عنهـا بالجري خلف الكرة، راحت تصيح عليه من جديـد، ولكنـه تظاهر بعدم سماعها، أسرع بسام وأمسك به، والصبي يجاهد للإفلات ثم تشبث بالأرض وصاح:

- دعني يا رجل، لماذا تجرني هكذا؟

- أمك تنادي عليك.

- وما يخصك أنت؟

- هي تنادي عليك منذ مدة ونحن معها.

- إنها أمي وليست أمك.

واضطر بسام إلى تركه، فأقبل الصبي بمفرده وهـو ينظر إلى بسام في غضب، وتقدمت إليـه، ولكنـه تجنبنـي واتجه مباشرة إلى حيث كانت تقف فاطمة.

جلسنا في حجرة فاطمة، ودار الحديث حول حياتها، لم أحاول أن أسأل كثيرا، لقد ذهب الماضي ولن يعود.

ابن أختي يدور حولي مستطلعا متشككًا في قرابتـي، وفاطمة أكدت له، إلا أنه ينظر إلي في ريبـة ويتفحصـني باهتمام، وأخيرا صاح:

- خال.

قلت في نشوة:

- نعم.

قال، وبريق غريب يشع في نظرته:

- أين بندقيتك؟

(١٧)

قدمت طلباً للانضمام للجيش ولكنهم رفضوه.

قالوا لي: إنك لم تعد تصلح.

حاولت أن أشرح لهم قصتي، ولكنهم أصروا على الرفض، وابتسم أحدهم وهو ينظر إلى يدي اليسرى، وأنا أهدد بها، واليمنى بتراء كئيبة ويتدلى كم جاكتني متهدلاً في فراغ، قال:

- لا تغضب يا عمي، هنا الكثيرون الذين يملكون اليد اليمني.

وأرخيت يدي بسرعة، كثيرا ما شعرت بالمرارة، حتى أصبحت عادة، لا يمكن أن تجد لاجئًا يعيش دون نوبات متلاحقة من الشعور بالمرارة.

جررت قدمي ومشيت نحو باب المخزن، هزتني كلمة (عمي) وودت لو أصرخ، مازلت قادرا على النضال، ولكني لم أفعل، يبدو أنني تمنيت الأحلام الصعبة، جلست في مكاني المعتاد فوق الحجر الأبيض أراقب الرائح والغادي.

منذ مدة وأنا جالس فوق هذا الحجر، وأمام هذا المخزن بعد أن أصبحت خفيرا وحارسا بالليل وبالنهار

لمخزن البضائع ولكن أحرسه ممـن؟ مـن اليهـود أم مـن العرب؟ لا أدري، فقط أجلس بالساعات الطويلة أحملق فـي الأرض، تأكلني الرغبة في معاودة الاشتراك في القتال، فـي تنظيم، في تدريب، في معاونة، في عمل شيء يمس حركـة النضال التي يجب أن يخوضها اللاجئون لكي يعـودوا إلـى ديارهم.

ومرات كثيرة أحاول، ولكني أفشل فـي المحاولـة، وكلما تحدثت إلى أحدهم في هذا الشأن، نظر إلى يدي وهـز رأسه في مواساة زائفة وقال:

- لقد عانيت ما فيه الكفاية، هون عليك.

أهون علي؟ هل هذا كلام يقال والبلد في يد غريب.

غريب، مجموعات من الرعاع والسفلة يدنسـونها، ويتحكمون فيها، وهم يقولون لي: هون عليك! وكيف تعـود الديار إذا هانت الأمور، نعم لقد كان يقول الشـيخ الضـرير عن هذه الحالة كلاما كثيرا، لا أذكره كلـه، ولكنـي أتـذكر حينما قال:

- الأمر الهين لا يسعى إليه الرجل العاقل،

تمتم الرجال الجالسون حوله:

- نعم يا مولانا صدقت ورب النور.

ابتسم الشيخ الضرير، وقال:

- ولكن لا يوجد بين كافة الأمور أمر هين.

ضحك الخبثاء، وقالوا وهم ينصرفون، كما يقولـون دوما، مجنون والله ذلك الشيخ.

ابتسمت وأنا أرى نفسي جالسا مثل الجـدة العجـوز أمام كوخ الصغار تراقب ولا تتـدخل، وجحافـل الشـباب تخترق الفيافي والتلال في إصرار الشباب وعزمه ليحـرروا الوطن، ليأخذوا بالثأر من ظلم اليوم الأسود، ليمهدوا الأرض للعودة، وتبدأ موجات العودة تمر أمامي، إنني أراها الآن، ها هم كثيرون، أسرعوا يا قوم، لقد حانت اللحظـة، هـا هـي أرضكم تفتح ذراعيها لترحب بكم، لا.. بل تبكي من الفرحة، وتصرخ من السعادة، ولكن ما الذي جعلك تقفين هكذا؟

وأنتن ما الذي جعلكن تقفن والباقيات مسرعات فـي طريق العودة.

نعم: ماذا؟ لماذا تضحكن؟ حسنًا أضحكن كما يحلـو لكن، ولم لا حلم الحياة كلها يتحقق.

- يبدو أنك سعيد يا عم بلال؟

- نعم.

- وما اسمه إذاً؟

- اسم من؟

وتضاحكت فتيات المشغل، إنهـن هكـذا، الفتيـات يضحكن في كل الأوقات والأزمنة، إنها مازالت تسأل هـذه الثرثارة:

- اسم المولود الجديد؟

وأخرى تسأل:

- وفاطمة كيف حالها الآن؟

غشيتني لحظات من السعادة جعلتنـي أعجـز عـن متابعة الإجابة على أسئلة الفتيات وهن يتضـاحكن حـولي، وكلهن يسألن في إلحاح متصل، ما لونه؟ ما شكله؟ ما اسمه؟ هل هو في جمال فاطمة؟ أم على شاكلة أبيه؟ ومتـى يمكـن رؤيته؟

وكلما بدأت الإجابة على سؤال، قـاطعتني أخـرى بسؤال، جديد، ولم يخلصني مـنهن إلا حضـور صـاحب المخزن.

عدت إلى جلستي وحيدا أفكر في زوجتي وابنها، لقد كدت أنساه، حقيقة ما لونه وكيف يبدو؟ لقد نسـيت تقـاطيع وجهه، لم أشعر تجاهله بعاطفة ما، إنه يبدو غريباً، ولا أشعر بالأبوة التي يقولون عنها، هأنا أصبح رب أسرة، مشـكلات السن والمأكل والتعليم، والمشكلات الأخرى أكثر.

ابن أختي يذهب إلى المدرسة، ويسألني كل يوم عن البندقية، وها هو وليد جديد سوف يسأل هـو الآخـر أيـن البندقية يا أبي؟

العمل كخفير لهذا المخزن الملعون لا يدر علي مالاً، والحياة قاسية صعبة، وتحاول فاطمة أن تسـاعدني بالعمـل أحياناً ولكن صحتها السيئة دائما تحول دون استمرارها فـي العمل.

واللعبة قذرة، ورغيـف الخبـز محشـو بـالعرق والدموع، وصانع الخبز يفهم سر اللعبة، فيعلو بالرغيف إلى أعلى والمعدة بيت الداء، تطلب خبزاً، ويتناول الرجل الجائع حجراً يصعد عليه لتطول يده رغيف الخبز، ولكنه لا يطوله لأن حامل الرغيف يرفع يده، والمعدة بيت الداء وفي البيـت بيوت كثيرة تطلب خبزاً، فيضع الرجل حجراً فـوق حجـر

لتطول يده الرغيف، والحجر يهتز فوق الحجر الأول، وعلى الرجل أن يقف منتبهاً لكي يحصل على الرغيـف ولكـي لا يسقط من فوق الحجر، ولكن الرغيف يعلو قامـة الرجـل، فيأتي بحجر ثالث، وينجح الرجل أخيرا في وضع الأحجـار فوق بعضها طبقات ويصعد عليها ليمد يده نحو رغيف الخبز والمعدة جائعة والأحجار غير ثابتة تهتز، وعلى الرجـل أن ينتبه إلى ما يفعله، ولا يستطيع الحصول على الرغيف إلا إذا وقف منتبها ويشغله هذا عن ما دونه من الأمور فلا يـدري إذا ما كانت عورته مستورة أو مكشوفة، ولو فكر في ذلـك لسقط من فوره وبعدها لن يحصل على رغيف الخبز، ولأنه يعلم ذلك، لأن في بيته أفواهاً مفتوحة، فإنه يظل منتبهاً فـي وقفته جاعلاً همه كله في الحصول على الرغيـف، ويبتسـم صاحب اللعبة فيرفع يده بالرغيف إلى أعلى، وتتكرر اللعبـة ولا تنتهي ومع هذا يقول العارفون ببواطن الأمور الدارسون لمجريات الأحداث، وهم يضعون أصابعهم فيما بين أسنانهم، أن ثمن الرغيف لم يزد ولم يتغير، رغم ارتفاع كافة الأسعار لكافة الأشياء، ويتجشأ كبيرهم ويبتسم في فخر.

أقبل صديقي بسام، سلم وجلس مهموماً، على غيـر عادته، انتظرت أن يتكلم ولكنه ظل صامتاً، صحت فيه:

- ما بك يا رجل؟

- لا شيء.

- بل لابد أن هناك شيئًا ما أحزنك إلى هذه الدرجة. قل يا رجل نحن إخوة؟

- أخي..

- ماذا بك؟

تقلصت عضلات وجهه في توتر حزين، وقال:

- قتلوه.

- أين؟

- بالقرب من بحيرة طبرية، كان مع مجموعة مـن الفدائيين.

وشعرت بالمرارة، نفس المرارة التي شـعرت بهـا حينما قبضوا على أخي، ونفس المرارة التي شعرت بها وأنا أسمع عن مقتل أمي وأبي وإخوتي، وكل رفاقي الذين ماتوا، كما أحسست بالمهانة والضعف والثورة تهب فـي أعمـاقي. شعور المرارة، ما الذي يعني الشعور بالمرارة، خيبة أمل إذا

ظل هكذا مجرد شعور بالمرارة، ولكنه يصبح لهبـاً مقدسـا يقود الطريق الحقيقي للعودة.

- إذاً لا تبك هكذا مثل الأرامل، إنه شـهيد بعـد أن أدي واجبه.

قال بسام في ألم حاول أن يداويه:

- الفراق صعب، لقد كان أصغر إخوتي، حملته على كتفي ونحن نرحل من أراضينا، عانيت لأوفر لـه الطعـام، علمته وربيته، سعدت به بعد أن كبر والتحق بالمنظمة.

- كنت تود الاحتفاظ به في صندوق من العاج!

- ولكن..

- لا تكن أحمق، إنه شهيد بطل.

لقد صنعت بطلاً وهذا يكفي فخاراً للعـالم بأسـره، والحزن عليه عار ومسبة في حقك.

ران صمت طويل، كنت أصلي من أجـل روحـي المعذبة وروح هؤلاء الخائفين مـن الجنـة، يقـول الشـيخ الضرير، في إجابة لسؤال طويل يتكرر عليه مساء كل يوم: إن الموت فجيعة ومصيبة كبرى للفرد، ولكنه على المستوى

البشري نعمة كبرى، والذي يؤمن بذلك يموت شهيداً، قالـت كما قالوا: إنه بالفعل شيخ مخرف مخبول.

انفجر بسام قائلاً:

- أريد أن أثأر له، لم أعد راغبا في العـيش بهـذه الطريقة، أريد أن أفعل شيئًا بنفسي.

- حسنًا، هذا ما كنت أقوله لكم جميعا، نحن نعـيش على حافة الخوف لا في داخله.

وقف بسام، وكان جبينه يبرق في ضـياء العـرق، وقال:

- أنا معك من الآن.

ها هو أول رجل ينضم إلى فرقتي الجديـدة، بدايـة مرحلة جديدة من العمل.

كان إيماني أن عملية التسلل إلى معسـكرات العـدو أعمال القناصة وعمليات الفرق الانتحارية هي أفضل طريق لتحرير الوطن، كنت مؤمناً بقدرة الحرب غيـر النظاميـة، وكما ضاعت فلسطين تعود، ربما يرجع إيماني بهذا الأسلوب إلى تعلقي بحرب العصابات في معسكرات القنـاة، ربمـا،

ولكنه بالتأكيد كان إيمان كل لاجئ يعيش في انتظار لحظـة العودة.

وشعرت أنني وجدت طريقاً يرفعني إلـى مسـتوى تقديري لنفسي بدلاً من الجلوس دوماً على حجر أملس أحلـم فقط بيوم العودة.

شيخنا الضرير، مثل علامات الحياة، تظهر بكثرة في فترات وتنعدم في فترات أخرى، وأنا أذكره دومـاً لحـاجتي إلى تذكر الإجابة التي يلقيها كل إنسان يدعي العلم والفلسـفة لسؤال تقليدي يطرحه كل البشـر كـل يـوم، وفـي أحـد الأمسيات، بينما كان الشيخ في جولته اليومية يحدث النـاس في أمور لا يرغبون في سماعها، قال:

- يا قوم، إني نذير لكم، أن تكفوا عن الحياة العابثة وأن تسلكوا طريق أقرب إلى الصواب وأن تستعدوا لعـدوكم وهذا خير لكم، وإلا أصابكم شر دائم وصـرتم بعـد ذلـك نادمين.

قهقه القوم وتصايحوا، ولكن في حـزن ردوا علـى الشيخ وأشاروا إلى ما بين أيديهم، كان فـي قلـوبهم وجـل وضعف وفي عقولهم يقف جلاد أحمق انتصـب فـي بهـو

أخيلتهم منذ الزمن الساحق في القدم يرفع سوطاً وهمياً مـن عذاب، كبل الخوف الأقدام والعقول، لو أن أحداً يصيح فـي وجه الجلاد العفريت، ولكن واحد لا يصلح، الكل يصيح في وجه العفريت.

قال الشيخ الضرير:

- يا قوم، إن كان لكم في الدنيا ما تخشون عليه فإن ذلك ما يضعف نفوسكم ويجعلكم عرضة للـذل والعبوديـة، والويل لكم.

مكروه ذلك الرجل الذي يقول الحق، يقولـون عنـه أشياء بذيئة ويلوثون سمعته بأوحـال الـتهم السـيئة، بـل ويوصمون عقله بالمرض والخبال، رحت أقول كمـا يقـول الشيخ، أو كما كان يقول، ولكن القوم لاهون لا يسمعون لعبد مثلي كلاماً، راحب كلماتي في الهواء، ومع ذلك قضيت عدة أيام وأنا متحمس في إقناع بعض الرجـال للانضـمام إلـى فرقتي الجديدة، وبذلت جهداً كبيرا، ولكني لم أضم أكثر مـن الثلاثين فرداً، وهذا العدد لا يكفي لتكوين فرقة تشكل نشاطاً له أهميته، ورغم ذلك اعتبرت هذا العدد نواة، على أن يزداد حجم الفرقة بعد ذلك.

وجاء رسول يخبرني أن ما أفعله متعارض مع ما يفعله الآخرون، وأن علي أن أكف حتى لا أشتت الجهد، وفشلت محاولاتي، في إقناع الرسول، بوجهة نظري سدى. ولم أكثر في القول فقد وجدت أنني أضرب رأسي في حائط لبناته من الكلمات المرصوصة بعناية وليس خلفها عمل جدي، سوى مجموعة هائلة من الشعارات والنظريات، ولكن لا عمل، وقررت، دون الدخول في متاهات الكلمات، أن أقوم بالعمل وأكتب كلمتي بالرصاص المتدفق من الرشاش.

مرض وليد، في ذلك الوقت الحساس، خشيت عليه من الموت فقد كان مرضه خطيراً، ورحت أدور به على الأطباء، ولم يشغلني مرضه عن متابعة خطواتي في تكوين الفرقة، ولكن العلاج طال وامتص كل مواردي المالية، وأصبحت في حاجة إلى الاقتراض من الأصدقاء.

وهددني صاحب المخزن بالفصل لأنني أصبحت أترك أبواب مخزنه كثيرا مما يعرض محتويات المخزن للسرقة!...

وشعرت بالمهانة، وأنني أقع في هوة سحيقة من المشاكل التي كنت أنظر إليها من قبل بشيء من الاحتقار

والازدراء، ولكنها مشاكل صغيرة تؤذي الإحساس والـنفس، حتى إن الإحساس بالندم لزواجي أصـبح يراودنـي ويقلـق تفكيري.

كان من الصعب على إنسان، تشبع بـروح الكفـاح والمقاومة، واعتنق اعتناقاً كاملاً ذلك المبدأ الروحي للنضال، أن يجد نفسه وسط مشاكل بالغة الصـغر ولكنهـا حاسـمة وواجبة الحل مثل ثمن زجاجة دواء لابنه أو وجبـة طعـام لأسرته بينما يهدده صاحب العمل بالنظر في أمـر فصـله، ويثور عليه الأصدقاء ضاجين من كثرة القروض، سـاخرين من غفلته وعدم حرصه على تنمية مـورد رزقـه وزيـادة ممتلكاته، وأجد نفسي محاصراً بكل هذا، وأعيد التفكير مرة، ومرات في الأمر، ولكن أجد سؤالاً كبيرا يقف أمام عقلـي: كيف أحافظ علة تنمية موارد رزقي أو حتـى أزاول العمـل وهناك خطر يتهدد مصدر هذا الرزق، كما يهدد نتيجة هـذا العمل بالفناء، بل لا يتورع عن صلبه أو نهبه؟

كيف أشيد قصراً وأعيش فيه وهناك مدفع مصـوب إلي وعلى وشك الانطلاق في كل لحظة؟ المشكلة إذاً لـيس

الرزق أو القصر بل هي السلاح في اليد الذي يؤمن الحياة ويعيدها.

ولكن السؤال يختفي ويحل محله سؤال آخر أكثر تعقيداً وصعوبة: كيف يعيش الإنسان دون عمل يزاوله ودون نقود يحصل عليها، ودون تلك الأشياء التي نسميها في لحظة الانبهار البطولي بأنها أشياء تافهة، هل تتوقف الحياة؟

هل يظل الناس ممسكين بزناد مدافعهم في انتظار المعركة؟ أعتقد أن السؤال الأول صعب، والسؤال الثاني أصعب.

ربما يكون هناك أناس أكثر مني تعقلاً وتفهماً للواقع وللأمور فلست إلا سائقاً لسيارات النقل، سابقاً، وخفيراً لمخزن قديم في الوقت الحاضر. ولست على جانب من التعليم والثقافة يؤهلني للحكم على طبيعة الأشياء، والأمر، في نفس الوقت غريب وخطير، بالنسبة لي على الأقل، والشرر في عيني يجعلني لا أري إلا طلقات المدافع وقصف القنابل وتدبير المخططات لهجوم ليلي مفاجئ، والجوع في أحشائي وعلى عيون أطفالي يجعلني أتلهف على استخدام كل الطرق، وأن أدت إلى السرقة في سبيل إطعامهم، والوحيدة

التي تقف بجانبي تهدئ من ثورتي بكلماتها الواعدة، زوجتي فاطمة، وكما دفعتني للسفر إلى القناة فـي الأيـام السـابقة، تدفعني الآن لمواصلة السير في نفس الدرب.

كان الشيخ الضرير يقول: في اللحظات الكالحة مـن وجه الزمن الحاضر، يصبح الضباب كثيفاً ولهذا تنعدم الرؤيا الواضحة. ولكن هناك بعض العيون تستكشف الطريق جيداً، ولكن البعض لا يكفي، يجب الكل، والكل يستكشف الطريـق في حالة واحدة فقط وهي وجود المعايير الثابتة.

في الزمن السابق، لم أكن أفهم ما يعنيه الشيخ، ولكن كلما توالت علي التجارب ومضى الـزمن، تتضـح رؤيـة كلماته أمام عقلي، وأشعر أنني مشيت مع الناس في ضـلالة حينما اتهموه بالخبل والجنون.

ويبدو أن الفترة التي قضيتها في الأسر قد أثرت في قدرتي على التفكير السليم، فالعالم في ناحية وأنا وحدي فـي ناحية، تكومت على نفسي في قلق، أحياناً أشـعر بالغبـاء، وأحياناً أشعر بالثورة على غبائي، ولكني هذه اللحظـة أقـع فريسة أهازيج المجتمع المخبول.

صرخ ابن أختي:

- لم تبكي يا أبي، هل أنت خائف من اليهود؟

- من اليهود!

- أنا لا أخاف منهم، انظر..

اقترب رأسه الصغيرة مني وقال في همس:

- لقد تسللنا، أنا وزملائي، إلى ما وراء الحدود دون أن يرانا رجال البوليس الدولي.

وانتبهت جيداً، قلت في فزع:

- كيف؟! ولم يطلقوا عليكم النار؟!

قال في جرأة طفولية:

- من؟ اليهود!! لقد أتلفنا لهم جراراً كان يقف هناك.

حاولت أن أداري فرحة كانت قد نبتت في قلبي، قلت:

- كيف يا ولد؟!

- هذه ليست أول مرة..

هز كتفيه في تظاهر بالبساطة واللامبالاة ومضى، وأنا أنظر في انبهار، والحقيقة تملأ أركان نفسي كما تملأ الغرفة التي أجلس بها الآن، بل وتملأ العالم كله، يمكن لإسرائيل، بل ويمكن لأي جماعة تملك السلاح والمقدرة، أن

تستولي على بقعة من الأرض، مثل قاطع طريق، ولكـن لا يظل هذا هو الوضع الطبيعي للأشياء، وهذا ما فعله هـؤلاء الصبية، فرغم أن ما قاموا به، يعتبر عملاً صـبيانياً يجلـب الضرر على الصبية أكثر من الضرر الذي يصيب العدو، إلا أنهم بذلك يحددون الطريق، ويضعون الإجابة للكثيـر مـن الأسئلة التي يطرحها الناس في كل مكان. وشعرت بـالفخر، وقلت:

- ولكن هذا يعرضكم للخطر؟

وفتح الصبي فمه في دهشة، وقال:

- خطر!! أليست قريتنا في خطر؟

- وهل أنت في شوق إلى رؤيتها؟

- في أشد الشوق يا أبي، إنني أحلم كل ليلة أننا نقيم في بيتنا هناك.

ونهضت وأنا أقول:

- حينما تكبر ستعرف الطريق إلـى (أم السـلول)

وصاح الصبي في غضب:

- ولكنني أعرفه من الآن يا أبي.

وتلفت خلفي وقلت:

- إذاً لا تجعله يغيب عن عقلك.

- أبدا يا أبي.

وخرجت من الحجرة، ولكن الصبي أسـرع خلفـي وهو يسأل:

- ولكن متى العودة يا أبي؟

نظرت إلي عينيه، ولم أجب، وألح في السؤال، وأنـا مازلت أنظر إلى عينيه، كرر السؤال مرة ثالثة، قلـت وأنـا أواصل السير، بعد أن قررت في نفسي قراراً لا رجعة فيه:

- قريباً جداً يا بني.

وقبل أن أخرج من باب البيت، رأيت الصبي وهـو يلوح لي ببندقية..

(١٨)

وعادت الذئاب تعوي من جديد، تبحث عن لحم لتأكله تنبش في قبر الصدور، تلعق دم طفل قتلته، واليد مبتـورة، عاجزة، مشلولة شوهها عدوان آثم من عدو همجي، والقلـب يدق في غل يطلب ثأراً، ولكن الغدر لا يترك للقلوب الثائرة فرصة الثورة، إنه يسرق لحظة انبثاق الثورة، فلا يـأتي إلا في الظلام، وعلى ظهر حصـان سـيده، والسـيد صـاحب الضيعة يخشى على ما سرقه من الضياع، من العـودة إلـي أصحابه الشرعيين، فيطلق كلاب الصيد تنهش في الصدور، واليد مبتورة بغير سلاح، والسماء تقذف لهباً يحرق لا يـدع للمدفع أن يتحرك.

وعاد العدوان.

عاد ليمـزق السـماء بطيرانـه، ويحـرق الأرض بمدمراته، والويل كل الويل للضعيف، للأعزل، صحت فـي ولدي:

- احمل سلاحك وتقدم.

ولكن الولد اختفى، أسرع لينضم إلى زملائه.

انفجرت قنبلة في المخزن المكدس عن آخره بأشياء كثيرة وراح اللهب الحارق يلتهم كل شيء، ترنح صندوق اللعب، سقط، خرجت عرائس إيطاليا، احترقت وهي تصدر صوتاً كأنين الأطفال، وتصاعد منها رائحة المطاط، انفجر صندوق آخر، علت النيران حول الصناديق الأخرى، اندفعت النسوة خارجات في فزع، سقطت دفعة (نابالم) على بوابة المخزن، ارتفع لهب أزرق من الوجوه، صرخت النساء في ألم أسطوري، رفعن أيديهن المشتعلة في ضراعة إلى السماء، ولكن دفعات جديدة سقطت من السماء، زادت رقعة اللهب، خرجت في غضب مجنون أصرخ:

- الكلاب، الكلاب.

ودفعت الباب أمامي ولم أجد أحداً، وجدت البيت خاوياً لا أحد يجيب على ندائي المتكرر، عدت إلى الشارع، قدر مكتوب، تجربة معادة مكررة مملة، القنابل تتساقط كمطر مدرار ويتساقط معها الجدران والحوائط وتشتعل النيران في البيوت، مشيت في الشارع مجنوناً، أعطوني سلاحاً، أردي به أحدهم وبعدها أموت سعيداً، لم يسمعني

أحد، لأنه لم يكن هنا أحد بالشارع ينصت أو يتكلم، لا أحـد، لقد دقت ساعة الموت.

ولمحت نساء من بعيد، هرعت إلى هناك، ورأيـت صفوفاً بأيديهن المدافع وسيلاً من النيـران يتـدفق ومئـات الجثث، القدرة الحقيقية للبشري في الصمود إلـى النهايـة، مدافع دبابات العدو قصف وابلا من دفعات متتالية من النار، تقدمت دبابة للعدو، تصدت لها فتاة تمسك في اليـد بندقيـة، والدبابة تتقدم في صمت صرخوا عليها أن تسرع بالابتعـاد، ولكنها الرغبة في التحدي، الرغبة الكامنة في المظلوم أمـام قوى الظلم، وقفت الفتاة تطلق النار على الدبابـة، لا يـؤثر رصاص بندقية في مدرعة حديثة، تقدمت الدبابة والفتاة تطلق النار، ظلت الدبابة تتقدم، لم تتحرك الفتاة من مكانها، تقدمت الدبابة فوق جثة الفتاة، ساعتها كفت البندقية وسـكتت إلـى الأبد.

صرخت في المدينة، رحت أدور فيها، فلتكن الجثث عائقاً دون التقدم، وليكن بحر الدماء دون قدومهم..

وهجم اليهود، في إصرار، على المدينة، والجرحـى يسقطون كأن السماء قد غطت عن آخرها بالطائرات التي لا

تكف لحظة واحدة عن قذف القنابل من كـل نـوع والقتلـى يكثرون، يتراكمون، ولكن لا قيمة للموت.

هذه ثالث مرة، أرى حرب اليهود الوحشية، أدور في الشوارع تتساقط حولي القنابل والبيوت، أتخطى جثث القتلى أسمع أنين الجرحى يختلط بدوي طلقات الرصاص، في المرة الأولى خرجت من دياري غلاماً مذعوراً يزحف مع جـيش البشر المطرود، وفي المرة الثانية شاباً يزيل فتيـل قنبلـة، وهذه المرة.. ما العمل؟

يجب أن تتجدد الحياة، أن تتغير في السهل الخصيب، أن ينمو لبلادي ناب وظفر، وأن تأكل بأسنانها العود الجاف، أن تكسر حجراً صلداً، أن تصرخ وأن تقول لا، وأن ترفض كل شيء، كل حل، كل كلمة، كل الكلام، أن تحارب.

يهرب البشر من المجازر، ويهـرب الإنسـان مـن واقعه، ويدور مع حلقات التبغ المتصاعد من فمه حالماً بعالم سعيد عادل، أن يتصور وهماً، كلمات وفـاء عـن حلـول بالكلمات، ولكن النار تحرق الكلمات، النار تصنع الصلب.

كنت أقول ذلك، رددته في القناة، وفي عمان، وفي كفر قاسم، وفي مخيمات اللاجئين التي تطرز الحوافي على حدود بلادي.

كانت قواتنا تقف على الحدود في تحفز، وكنا خلفهم نستعد للمعركة، وطول الليل، وكنت جالساً في مكاني أمام باب المخزن، شعرت أن زوج أختي قد عاد إلى الحياة وجلس بجواري، وقال؟

- اسمع يا بلال؟

وحملقت في وجهه وشعرت بالخوف، كانت هذه أول مرة أشعر فيها بالخوف، وتملكتني رجفة، فقلت به بصوت خافت:

- نعم.

احكم وضع العباءة الخضراء حول كتفه وقال:

- لا تنم، فإنهم يقاتلونك، وقد آن الأوان أن تموت يا بلال في اليوم العاشر من الحرب..

ثم جاءت الطائرات وقذفت المدينة ودمرتها، وظلت تدمرها لمدة عشرة أيام، ثم قتلت في اليوم العاشر.

ولما كان الصباح وسمعت قذف المـدافع وسـقوط القنابل خيل إلي أن الحلم عاد مرة أخرى، وأنني أصبحت من كثرة التفكير في الحرب ومشاكلها قد أصبت بلوثة المعارك، ولكن دوي الانفجار حقيقة، خرجت إلى الشارع وكنا ما نزال في أول النهار والشمس لم تضح بعد، فإذا القـوم يتـدفقون حاملي السلاح، وصوت الراديو يعلن موعد العودة، وهلـل الناس وكبروا، واحتشدت الحشـود، وبـدأ الزحـف نحـو الحدود..

تطور الموقف، زادت طائرات العدو عدداً وهجوماً، المفاجأة أخذت القوم على غرة، أطنان النتروجين، الملعـون أطنان النابالم الحارق، مئات من الدانات الأسطورية الحجـم تأتي على كل ما يصادفها.

وجاء الليل ومضت ساعاته في بطء، وعدد القتلـى يتزايد بشكل مخيف، وآلاف الجرحى يسقطون، ولا غـوث ولا عون دمروا المستشفيات وكل مكان يصلح للعلاج، ولكن المدينة لم تستسلم بعد، الأيدي ما زالت تحمل السلاح.

وفي منتصف الليل، بدأت مدرعات اليهود تأتي مـن الخلف والأيدي تدافع عن أرضها ببنادق السلطان، وقـواتهم

تعمل وفقاً لعقول من صلب ومعدن لا تعرف سـوى القتـل والتدمير وتملك وسائله.

وسيطر الموت على المدينة، وتدفقت قوات العدو من كل جانب لتزيل من أمامها أي لون من ألوان الحيـاة، ومـا الذي يفعله الخسيس إذا انتصر؟

وإن كان أمل العودة يرتفع في الصدور دائمـا فقـد أصبح الآن، وبفضل هذه الحرب الشائنة، حـرب الإبـادة، الموت أو العودة، العودة هي الحياة وبدونها لن تعـد للحيـاة قيمة، اندحرت اليوم معركة الكلمات وصدق وعد الصلب.

الرحمة لك يا شيخنا، الرحمة لـك والحـق معـك، والويل لنا، لقد كنت صادق ونحن نخرف ونجادل ونضـحك من قولك: وننعته بالخبال والجنون، وهـو الحـق الصـادق والقول الأكيد، تركناهم حتى نضـجوا وكبـروا وأفرخـت صغارهم، وشب عن الطـوق مـارد ملعـون، والآن هـي المعركة، أعطوني بندقية أقول لكم كلمتي...

وكان الويل للباقين على قيد الحياة، إن كل جريمتهم في نظر اليهود أنهم بقوا أحياء، ويقترب كلب أجرب يركـب فيلاً، الفيل ضخم الجسم، ضعيف العقل، شرير النية، لا يفهم

إلا عن طريق نابه، والكلب الأجرب هزيلك ضامر، ولكنـه يجلس فوق الفيل ويضع فمه في أذنه، ويري الكلب وهو في برجه الآمن من فوق الفيل قطة تلعق طبقاً من اللبن، فيهتاج الكلب الأجرب، ولكنه أضعف من أن يهاجم القطة، فـيهمس في أذن الفيل ضعيف العقل:

- هذه القطة تسبك.

ويتحرك الفيل لكي يدوس القطة بقدمـه العريضـة الثقيلة، ولكن القطة تفر هاربة، ويغضب الكلب لنجاة القطة، فيعض أذن الفيل حتى تدمي ويقول له:

- ها هي تقذفك بالحجارة حتى أدمت أذنيك.

ويثور الفيل، فقد جرؤ كائن ضعيف وقذفه بالحجارة، وينطلق باحثاً عن القطة التي فرت هاربة إلى بيتها تحتمـي به، ولكن الفيل ضعيف العقل الـدامي الأذن، يهـدم البيـت ويبعثر محتوياته ويقذف القطة في شراسة فتسقط في حفـرة تتألم وينزف جسدها دماً، والكلب الأجرب سعيد حيـث هـو على ظهر هذا الفيل ضعيف العقل.

ويأتي رجل حكيم يسأل في صوت واهن:

- أليست هناك من طريقـة لوقـف هـذا الحيـوان الشرس؟

فيجيبه رجل، يأتي من بعيد، ولكنه يرى جيداً:

- اقتلوا أولاً هذا الكلب الأجرب، أو أبعدوه عن أذن الحيوان المسكين، ضعيف العقل كبير الأذن.

وتندفع جماهير تحمل فؤوساً وبنادق، تجذب الكلـب من حصنه لتنهال عليه ضرباً حتى يقتلونه، ويسـعد الفيـل ويجري مسرعاً يمرح في الحديقة ويأكل في أمـان، وتعـود الحمامة لتضع حبة حنان بمنقارها على أذنه المجروحة.

ويسيل الدم قذراً من الكلب الأجرب يلـوث يـدي، وسحبت يدي بسرعة، قال بسام:

- سلمت يدك.

نظرت إلى السكين في يدي اليسرى بنشـوة وكـدت أقبلها ولكن جذبني بسام وهو يقول:

- إنهم قادمون.

وبسرعة كنا نختبئ خلف جـدار متهـدم، وتقـدمت سيارة نصف مجنزرة ودارت دورتين، ثم لمح الجنود زميلهم

يرقد في بحر من الدماء، فولوا هاربين وهم يوزعون نيرانهم في كل اتجاه.

مكثنا خلف الجدار حتـى اختفـوا، أنهـم كثيـرون ويملكون السلاح، ولكنهم خائفون مثل النعاج، جبنـاء مثـل جماعات الأرانب.

والمدينة خاوية، أو يخيل إليك ذلك من النظـر إلـى الشوارع وتدور الداوريات المسلحة ليل نهار، والنـاس فـي البيوت خلف الجدران ينتظرون عودة المسيح، ونحـن قلـة ولكن في قلوبنا رغبة في الموت.

لكزني رفيقي في جنبي فانتبهت جيداً، رأيت سـيارة مكشوفة تحمل مجموعة من الجند في أيديهم المدافع سـريعة الطلقات وفي حالة تأهب للضرب، وكان الليل قد بدأ يغطـي الأرض.. فكرت بسرعة، وطوحت السكين بقوة اليد العسراء التي أضناها الألم والحقد، انغرسـت السـكين فـي صـدر الجندي، رفع يده في ألم صامت، سقط مدفعه علـى حافـة العربة، ترنح قليلاً، ازدادت سرعة العربة، سقط الجندي على أرض الشارع، تمدد في سكون والدماء تندفع كشـلال، لـم

تتوقف السيارة فرت هاربة والجنود يطلقون النار بدون هدف وبخوف.

وكان لابد من الفرار من هذا المكان، فسوف يعودون بقوات أكبر، ولكن إلى أين؟ إنهم يطلقـون بقصـد الإبـادة، ليست هذه حرباً كما يعرفها العالم بل هي إبادة شعب لإحلال أخرين محله، من كان فلسطينياً مثلي يعرف ذلك جيداً، ليست المسألة مسألة حرب ومعارك بل أخطر من ذلـك وأعمـق، وهؤلاء الذين هاجروا من أوروبا إلى بلاد كانـت مجهولـة لعالمهم، أبادوا سكان تلك البلاد إبادة كاملة بحجة السلام، هم اليوم أيضا، هم المعاونون لعملية إبادة جديدة.

السلاح الوحيد الذي كان بيدي انغرس فـي صـدر الجندي ومن أين لنا بسكين آخر؟ وهم يستولون علـى كـل شيء حتى السكاكين.

رحنا ننتقل بسرعة خلف الجدران في حركة يقظـة، مبتعدين عن مكان الحادث، عثرت قـدمي بشـيء صـلب، انحنيت أتحسسه فإذا به عود من الحديد الذي يسـتعمل فـي البناء، رفعته سعيداً وهمست إلى بسام:

- هذا أفضل من السكين.

رد بسام في ضيق:

- ولكن ماذا نفعل به أمام مدافعهم، يجب الحصول على مدفع رشاش، والاتصال بباقي المجموعة حتى ننسق العمليات.

قلت، وأنا أتصور عود الحديد ينغرس في ظهر أحدهم:

- المهم أن نقاوم حتى الموت، هذا دورنا.

- بأسياخ الحديد، هذه الأعمال انتحارية لم تعد مجدية، يجب أن نتعلم كيف لا نموت، لقد كنا نموت دائما وهذا يكفي حتى الآن.

- يجب ألا نسكت..

- وأن يشعروا هم بعدم الأمان.

كنا قد ابتعدنا كثيرا عن المكان الأول، وجلسنا نستريح قليلاً، وفي كل لحظة تمر داورية للعدو في تلصص خائف فزع، ذلك الخوف الذي يطل من عيونهم وهم يطلقون النار في وحشية.. هو مقتلهم ويجب أن نزيد من خوفهم فيزدادون وحشية، ومن الوحشية والظلم يخرج الثوار.

وقفت السيارة وهبط أحد الجنود يحمل مدفعه مصوباً في تحفز، تقدم من جثة مدني ملقاة علـى الطريـق، ركـل الجندي الجثة، سقطت ساعة القتيل تبرق في الظلمة، انحنـى الجندي بسرعة والتقط الساعة، وأسرع بركوب السيارة التي انطلقت مسرعة.

همست إلى بسام:

- أليس معك ما يبرق؟

أجاب بسام في حيرة:

- معي خاتم، ربما نستطيع شراء رغيف خبز به.

وتذكرت الطعام، ولكن لا يهم، إنهم يستولون علـى كل شيء، النقود والطعام والشرف، والحيـاة أيضـا ولهـذا نقاتلهم.

اقتربت سيارة الداوية، رميت الخاتم علـى الأرض، ظل يتدحرج ثم توقف، توقفت السيارة، يبدو أن جندياً لمـح الخاتم كانت به ماسة تبرق، هبط في نشوة.

اقترب وانحنى ليلتقط الخاتم، ابتسـمت فـي نفسـي وقلت:

- يهودي!

ولم يستطع الجندي أن يلتقط الخاتم فقد جذبته بسرعة من رقبته بالعود الحديد، بعد أن أعددته لهذا الغرض، كانـت مفاجأة، صرخ في رعب، سقط على الأرض، جذبته نحوي، استولى بسام على سلاحه، أخذ الجنود يطلقون النار نحونـا في سيل كثيف، صحت وأنا ممسك بالجندي أسيراً أمامي:

- قل لهم أن يكفوا حتى لا يقتلوك، ونحن كثيرون.

توسل إليهم زميل في صوت متهدج مـن الخـوف، ولكنهم ظلوا يطلقوا النار، أصابته رصاصة فـي أحشـائه، تحشرج صوته وهو يقول:

- عليكم اللعنة جبناء، ما الذي جعلني آتي إلى هنا؟

أطلق بسام النار من مكمنه أصاب جندياً آخر، تركت الجندي اليهودي يسقط فقد أصبح جثة هامدة، أشرت إلى بسام بالفرار، مستغلاً ارتباكهم والظلام المحيط.

ولكن ما فائدة هذا، شريدان بلا مـأوى ولا طعـام، يفتك بهما الحزن على أسرهما التي أجبرهـا اليهـود علـى الهجرة ماذا يمكن أن يفعلاه أمام قوات لا حصر لها في يدها السلاح تطلقه بسبب وبدون سبب؟!

أحياناً يصر الموت على تخطينا في كل مرة نتعرض له وكنا نجد أنفسنا أحياء نتبادل النظرات في أسى، أصـبحنا مثل كلاب ضالة تعيش في الخرابات والجحور.

نخرج أثناء الليل لنقتل جندياً أو أكثر ثم نعـود إلـى الاختباء كان بسام يقول لي:

- الليلة أقتل جندياً منهم وأموت.

ونخرج وليس في أيدينا سوى سلاح بدائي اخترعته قطعة من الصلب الحادة الأطراف تنتهي بقطعة من الخشـب طويلة إلى حد ما، نربض في مكان مظلم، فإذا عبرت إحدى الداوريات أمامنا قذفنا بسلاحنا في تصـويب دقيـق، ينفـذ الصلب في سرعة في صدر أحدهم، فيسقط دون صوت يقع مثل حجر من الجير، وترتفع طلقات الرصاص من رشاشات الجنود، وتأتي لحظة الموت الأكيدة ولكن لا يهـم، متنـا أم عشنا، المهم أننا حتى الآن لم نمت وقد أردينا بهذه الطريقـة أكثر من ثلاثين منهم.

في البداية الأولى لعملية الاحتلال اليهـودي، كانـت الأمور العامة غير واضحة، وكان ما يدمي للقلب حقاً أنه لا

توجد طريقة للاتصال بالعالم الخارجي، ماذا يـدور خـارج القطاع؟ ماذا يدور في الأمم المتحدة؟ لا شيء..

جدار من الصمت بيننا وبين العـالم، لا نـرى ولا نسمع إلا تعليمات هؤلاء الكلاب، بيان هـام: كيـف تحـول نقودك إلى عملة الدولة، تحذيرات هامة: عدم تنفيذها يـؤدي إلى نسف المنازل والدور بمن فيها، الإعدام رمياً بالرصاص يجري في ميدان المحطة في الساعة العاشرة فـي خمسـين فرداً متمردين على الحكومة، وهكذا ينعـق البـوم بصـوت الخراب، اللصوص شكلوا حكومة، حاكماً ورئيساً وقضـاة، تغيرت المعاني، الثورة على الظلم أصبحت تسـمى تمـرداً وخروجاً على تعليمات الأمن والسلام.

والناس، الناس من حولنا، أين هم؟ ماذا يقولون؟

لكزني بسام، حاولت الانتباه، ولكـن دون جـدوى، الجوع هدني أرغب في النوم، أحياناً يرغب الإنسان في النوم تحت وابل القنابل.. الخطر قائم، ولكن الحياة تمضي، دفعني بسام بعنف، يبدو أن هناك خطراً أكيداً يهددنا تحركت معـه في وجوم، انبطح على الأرض وجذبني معه، الأرض خشنة، انفجرت قنبلة بالقرب منا، هزني الانفجار بعنف، كنت ممـداً

على وجهي شعرت أن الأرض أصدرت صـوتاً مكتومـاً، اندفعت بعض قطع من الحجارة وارتطمت بجسدي، يبدو أن تراب الأرض قد غطى المكان كله مختلطاً بدخان الانفجار، تذكرت فتاة كنت قد قابلتها يوماً في الإسماعيلية، يبدو أنهـا فتاة الميدان.. جذبتني من يدي، دخلنا إلى حجرة مظلمة، لـم أعد أر شيئًا تحسست جسدها، كان ناعماً أملس، رائـع هـذا الجسد الأنثوي.. تحسست مرة أخرى، ولكن الأرض خشنة، ودوي الانفجار ما يزال يدوي في عنف، شـعرت بالرغبـة الجارفة في حضن امرأة.

كان لابد لنا من الهرب، زحفنا تحـت وابـل مـن الطلقات المجهولة المصدر، اخترقنا حاجز الزمن العاقل.

كان الخطر يهددنا في كل خطوة، ومع هذا لم يكـن أمامنا سوى التقدم، ورحنا نزحف من جديد وفـي إصـرار، والرغبة في النساء تحيرني.

همس بسام قائلاً:

- وصلنا يا بلال.

- إلي أين؟

- إلى مقر الفرقة، يمكن الآن أن تسريح قليلاً.

- والطعام؟

- لا أريد سوى كوب من الشاي.

يا إلهي، هذه مأساة لا معنى لها، جحافل الديدان تعبر الطريق، تصدر صوتاً مكتوماً مثل حشرجة رجـل يمـوت، الديدان تصعد الجبل، تتدفق على الوادي الأخضـر، تأكـل النبت، تدوسه، تبول عليه، وتسير فوقه لتصعد تلالاً يفـوح منها رائحة الورد، ولكن الورد يذبل حينما يرى الديدان تقبل عليه، وتنكس الوردة رأسها في حزن، تبكي، تتساقط دموعها على أرض التلال تنبت شوكاً يخترق أجساد الديدان وتتلوى الديدان في الفم، تقفز بسرعة، وتتحول دموع الورد إلى بحر من الشوك، والشوك يلاحق الديدان، جيش الديـدان يمـوت، اختفى، عادت البسمة إلى الوردة الحزينة، رفعـت رأسـها وكفت عن الدموع، نظرت إلى الشمس في حنان، هتفت من قلبها وقالت:

- أمي.

ونظرت الشمس إلى الوردة وحيتها فـي ابتسـامة، داعبتها بأهدابها الذهبية، انتعشت ودبت الحياة فـي الجسـم الرقيق، عادت رائحة الورد تفوح وتملأ الوادي، هتفت التلال

تكبر، سمعت الوديان هتافات التلال، نفضت عـن أجسـادنا كبوة الزمن النحس، وتماوجت، قذفت بعثرات الزمن الوحل، أخرجت نبتاً أخضر، كبر النبت وأصبح شجراً يتدلى منه ثمر أحمر، هتفت البلدان تكبر، جرى طفل نحو الثمـرة، ولكـن ذراع الطفل أصغر من أن تنال الثمرة، دمعت عيناه هتفـت الشجرة وقالت:

- لا تبك في اليوم السعيد.

ومالت نحوه، ورأى الطفل الثمرة المحبوبة بين يديه، زغردت أضحوكة حبلى في فمه، وصاح جهاز الراديو معلناً البيان الأول، الله أكبر.

ورأيت في منامي، رفيقي الشيخ الضرير، كان يبتسم في سعادة ممسكاً بالبيان الأول، قلت:

- والآن، سيدي الشيخ، هل لك في كلمة تقولها؟

أشار بالورقة التي في يده، وقال:

- لم يعد عندي ما أقوله، هذا يكفي..

اختفي الشيخ وهو يلوح لي بالورقـة، أذاع الراديـو البيان الثاني،،

***

(١٩)

طلع الفجر.

سادت تباشيرة فوق الأرض، جلس الراعـي فـوق الربوة، ينظر إلى قطيعه ويرسل من مزماره لحناً، تفرقـت الأغنام ترعى في هدوء، أو تشمشم في الأرض باحثة عـن نبت أخضر ينمو بين الأحجار، وكلب أسود يقف في نشـوة فوق ربوة عالية، يرهف أذنيه ليسمع لحن سيده، يفرد جسده ويتمطى في كسل سعيد.

الأغنام لا تأكل عشباً، إنمـا تشـم رائحـة الأرض المفقودة، أرض ردت إليها، والهواء يخـرج مـن المزمـار طرباً ينتشر عبر الوديان، يمسها بسحره يدور حول الـتلال، ينفخ في أذن الطير، ها هو اليوم الموعود.

أنا أسمع لحناً يتردد في الأفق، أسبح فـي الفضـاء وأدور مع الريح القادم من الشرق، يحملنـي الهـواء لأرى الأشجار والحقول والقرى والجبال تمر سراعاً، وأنا وحـدي أركب سحابة بيضاء، أجلس عليها في هدوء وأضـحك فـي سعادة، كل شيء يهون لتحصل على السعادة أخيرا، ولكـن

كيف تحتفظ بالسعادة، ها هي السـحابة تهـبط وأرى القـوم يجتمعون وفي القوم خطيب يتكلم، إنه يهـدد بقبضـة يـده، اقتربت منه، إنني لا أسمع شيئًا، أرى يده تتحرك في الهواء بعصبية ولكنه لا أسمع كلاماً يخرج من فمه.. الرجل يـتكلم دون صوت، هذه بدعة، جاء رجل ضخم دفعني بقوة، وجاء آخر ولكزني بعنف وهو يقول:

- ابتعد من هنا يا هذا.

تراجعت بضعة خطوات، ولكنه عاد يـدفعني ثانيـة ويقول:

- يا لك من رجل أحمق، ألم أقل لك ابتعد؟

وتراجعت خطوات أخرى، ومع هـذا صـاح فـي غضب:

- قلت لك ابتعد، أنت تزاحم القوم.

أزاحم القوم! لقد مضوا، لم يبق أحـد، إنـي لا أري حداً، ولم أتحرك، فغضب الرجل غضبة هائلة، وقال:

- إذا أنت تود أن تقول إن سيدنا يخطب في الهواء، ولا أحد هنا إلا أنت؟

ابتسمت في إشفاق، كما كان يفعـل معلمنـا الشـيخ الضرير حينما كنا نسبه ونصفه بالجنون، وقلت:

- حتى أنا لا أسمع شيئًا!!

تقدم الرجل الضخم وقال بحسم:

- أنت تسب سيدنا.

- أبدا، ولكن..

- ولكنك تسبه.

- لا، فقط أقول..

- تقول إنك تسب سيدنا.

- لا..

جاء رجلان وأمسكا بي، والرجل الضخم يقول:

- أنت رجل خطر علي المسلمين والإسلام.

سنضعك في السجن.

عجباً، هذا الرجل الذي يـتكلم دون صـوت أمـام المسلمين، يا شيخنا كنا نقول كما كان الناس يقولون، مجنون أو مخبول وكنت أقول كما كانوا يقولون، اللعنة على كل من نعتك بما ليس فيك، ولكن هكذا نحن لا نحب المخلصين.

دفعني الرجال إلى السجن، ومكثت يوماً، وإذا ما جاء اليوم الثاني رأيت حارسي يقول:

- أتحب أن أفرج عنك؟

قلت في لهفة:

- جزاك الله كل خير.

فابتسم في خبث، وقال:

- فقط على شرطين.

- كل ما تقوله مقبول، لو مكثت هنـا يومـا آخـر سأجن.

- أولهما: أن تخرج من هنا ولا تعود أبدا.

- حسناً، وثانيهما؟

- أن تدفع لي ألف دينار.

- ألف دينار! من أين؟

- والله لولا أنني متعاقد مع مولاي على هـذا مـا أخذت منك ديناراً واحداً، ولكنـك للأسـف دخلـت ضـمن المقطوعية.

- ما هذا يا رجل؟ من مولاك هذا؟

- ألا تعرفه؟

إنه الذي أمر بالإبقاء عليك في السجن، هذه سياسة اخترعها سيدنا الإمام، يأمر بالسجن والإعدام والنفي ونحن...

- تقبضون ثمن الإفراج.

- نعم، للصالح العام، للأمة.

- ولكن هذا ظلم وحرام.

- يا رجل لا تكن ساذجاً إلى هذه الدرجة، إنها إحدى وسائل تدبير الميزانية، ميزانية الأمام. وحتى نأخذ أجورنا.

- إنها لعبة مسلية!!

- للغاية، هل ترغب في الانضمام إلينا؟

نحن في حاجة إلى مساعدين.

- والذي يرفض الدفع..؟

- نذبحه.

- إذاً اقتلني.

- ولكن قتلك، سيكلفنا وهذه خسارة في الميزانية ويتسبب ذلك في خصم جزء من راتبي، أرجوك ادفع فأنا أنفق على أسرة كبيرة.

أشفقت على الرجل.. قتلته.

انصرفت لاعنًا تلك البلاد، وعدت أطوف بالبلـدان، مثل ألوان ريش الطاووس، كل بلد لها لون واضـح وعـدة ألوان أخرى تتضح فيما بعد، وفي كل بلد إمام يخطب فيها.

وأخيرا أحسست أنني أختنق، إنه عالم مرذول، عالم الكلام بدون صوت عالم الساقية الخربة التي تئز ولا تـروي حقلاً.

وعدت إلى الراعي فوجدته حزيناً، تجمعت الأغنـام حول والكلاب يلعق قدميه في حزن، قلت للراعي:

- ما بك يا فتي؟

لماذا أنت حزين؟ لقد كنت تشدو بلحن جميل؟!

لم يرد، نظرت إلى عينيه، الحزن الدفين يظهر فـي العيون العربية، والعيون العربيـة عرفـت الألـم والسـهاد والندم..

والحزن الدفين، تشكلت في خلال عصور ضاربة في القدم بلون الحزن، وتجمعت نقط حمراء في عـين الفتـى، ظننت أنه يود البكاء، كررت عليه السؤال، قال وهو يـداري وجهه:

- لم يعد القوم يسمعونني، راحوا يتسمعون من خلف الأبواب المغلقة ما يقوله الآخرون.

حتى هذا الفتى يشكو الإنصات إليه، كل يرغب في الكلام ولا أحد يرغب في الإنصات، جزر العزلة تنبع من الرغبة في الحديث المنفرد، هكذا كان يقول الشيخ الضرير، وكان قوله حكيما.

قلت أشجع الفتى:

- ربما تشدو بصوت لا يسمعه الجميع، ثم إن القوم، اليوم، كثرت أعدادهم، وامتدت بهم الديار، وتراكمت عليهم الديون..

نظر الفتى بعيدا، وقال في ثقة مما يقول:

- إن القلوب المؤمنة تسمع اللحن مهما كان البعد.

رأيت بعض القوم يقبلون، قلت فرحا:

- ها قد أقبل بعض القوم، اعزف لحنك الآن.

مضت لحظات من الصمت قبل أن يرد الفتى وهو ينظر إلى القادمين:

- لابد أن يأتوا جميعا.

- جميعا! حتى ما كان منهم بعيدا في المغارب؟

- من المغرب والمشرق والجنوب، من كل مكـان، إنه لحن لا يسمعه بعض القوم دون البعض أمـا أن يكونـوا جميعا وإلا فلا لحن هناك.

يبدو الصدق في كلماته، وحقًا مـا يقـول، تركتـه وارتقيت جبلاً، وأخذت أردد:

- يا قوم، يا من أنتم فـي صـحراء المغـرب، ألا تسمعون يا قوم؟

جاوبني صوت الراديو يذيع النشرة:

- نداء إلى.. القمر في الطريق، نداء إلى.. رفعـت عقيرتي وناديت:

- يا آكلي لحوم الأضحية في العيد المقدس.

يا شاربي ماء الأردن والنيل والفرات.

يا أصحابي المجدل وحطين وبدر.

ألا تسمعون؟

مازال الراديو يذيع النشرة:

- من ردفان إلي الكرك، عد إلي القاعدة، من النهر الأزرق إلي المجموعة الخامسة العيد قادم، من..

ناديت، كررت النداء، رفعـت صـوتي بقـدر مـا أستطيع:

- يا قوم، إن هنا فتي يقول أنه سوف يعـزف لكـم لحناً إن سمعتموه، ولن تسمعوه إلا جمعاً، كانت لكم الحيـاة والآخرة، وإن خشيتم علي ما في إيديكم خرج إليكم من فـي القبول وسبوكم ولعنوكم، وبعدها ستموتون عبيداً.

الراديو يقول:

- بيان رقم ألف ومائة، قامت وحدات من المجموعة رقم سبعة تعززها وحدات من المجموعة الخامسـة عشـرة باحتلال مناطق حول نهر العوجة وتندفع الآن إلـي مصـبه علي البحر، وتمركزت بعض القوات في كفر قاسم.

وسمعت صهيل الخيل، وأمواج البحر، ورعد البرق، وتلاطمت موجات حبات الرمال، وأصوات القـوم تدمـدم، ورأيتهم قادمين.

قادمون من المشارق والمغارب، قادمون مـن كـل مكان، جريت إلي الفتي وصحت فيه:

- انظر ها هم قادمون جميعا، جميع من نطق مثلك، وأكل من لحم الأضحية.

وارتفع اللحن، لحن اليوم الموعود، قوياً مثل رعـد السماء.. إنه صوت الرب، الملائكة تغني تنشد ترنيمة صلاة الفجر، والقوم يقبلون ويرددون في نشوة، يا إلهي..

إنني أراك الآن، اسمعك، أري نور خلقـك يفـرش الأرض..

يا قوم هللوا وكبروا، إنها مزامير السماء تعزف لكم لحن النصر لحن العودة..

وجاء الشيخ الضرير وجلس، كان يبتسم في هـدوء، نظر إلي في حب، تحسس جبهتي، تمتم في خفوت، أشار إلي أخرىن، حاول الآخرون رفعي من علي الأرض، صـرخت بقوة:

- لا..

يا أخوتي في بطـون القبـور، يـا عيونـاً مزقهـا الكافرون.

يا عظاماً حطمها قدم الظلم.

يا أخوتي في لحد المعركة، ها نحن نعود، وسنسـير في تمهل فوق أرض ترابها أجسادكم.

حاولوا رفعي مرة أخرى، قاومت، لا أريـد، أود أن أظل هكذا محتضناً الأرض الحبيبة، ولكـنهم تغلبـوا علـي ورفعوني، جسدي يهتز، أشعر ببعض الألم، ولكن لا يهـم، المزامير تدوي فوق قبور الشهداء، وغصن زيتون يرفـرف فوق جبين أسمر يحمل طفلاً، أنه طفل عدوي، ولكن لا حقد هناك، أن كل من ذاق الظلم عفت نفسه عن ارتكاب الظلم، يا طفلي المسكين لا تخف.. لك أن تحيا في سعادة، ولن نقـول لك ما قاله والداك لأطفال كفر قاسم.

مازلت أري الشيخ الضرير، جالسـاً يـتكلم، بينمـا الراعي الأسمر يعزف اللحن، والقوم قادمون مقبلون، ولكـن سحابة من السواد تجلل الأفق، تحجب الرؤية عني، أحـاول جاهداً أن أبصر ما حولي، ولكن لا فائدة، ظلال كثيفة تغطي علي عيني، أسمع فقط، العازف الفتي، ونشرة الأخبار مـن الراديو وصوت الشيخ يتمتم، ولكني لا أذكر ما يقولـه الآن، فقط أذكر ما كان يقوله، حينما رقد لآخر مـرة، فقـد نظـر حوله، وقال:

والآن اهبط القبر في سلام، ووداعاً يا قوم، لقد تركت فيكم أمانة أن تضيعوها تتفرقوا شيعاً في الأرض وأحزاباً، وبعدها لن يعزف لكم لحن أبدا.

وداعاً يا قوم.

الراديو يقول:

- استطاعت قوات المجموعة.. تطهير منطقة أم الدفوف، وتحاول الآن تطهير منطقة..

لم أعد أسمع.

وأخيرا أقول كما كان يقول رفيقي الشيخ الضرير، حينما وقف لآخر مرة، وداعاً يا قوم...

(بلال)

***

الدقي في ١٩٦٧/٧/٢